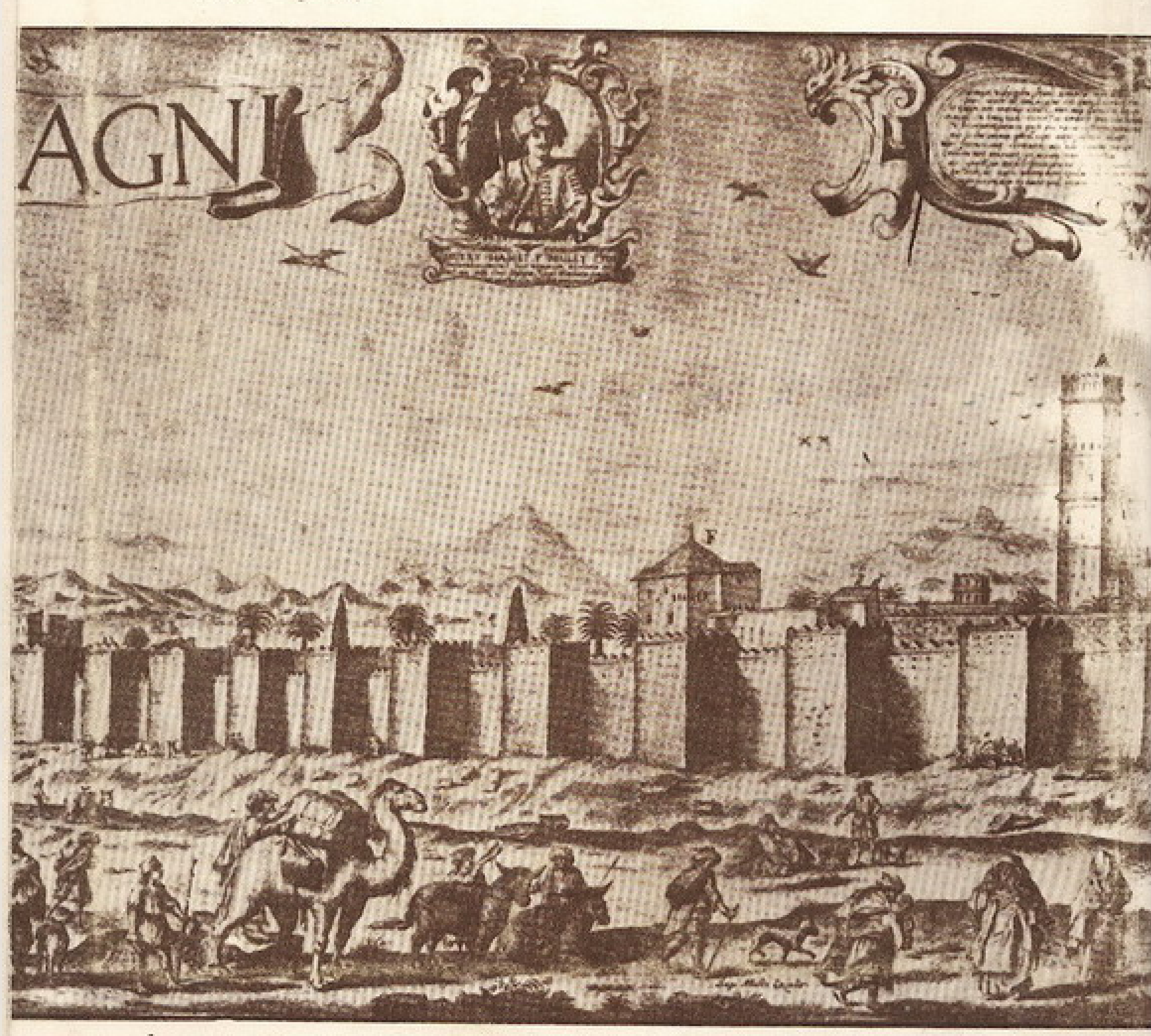
kitabweb-2013.forumaroc.net

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

قصر البديع بمراكش

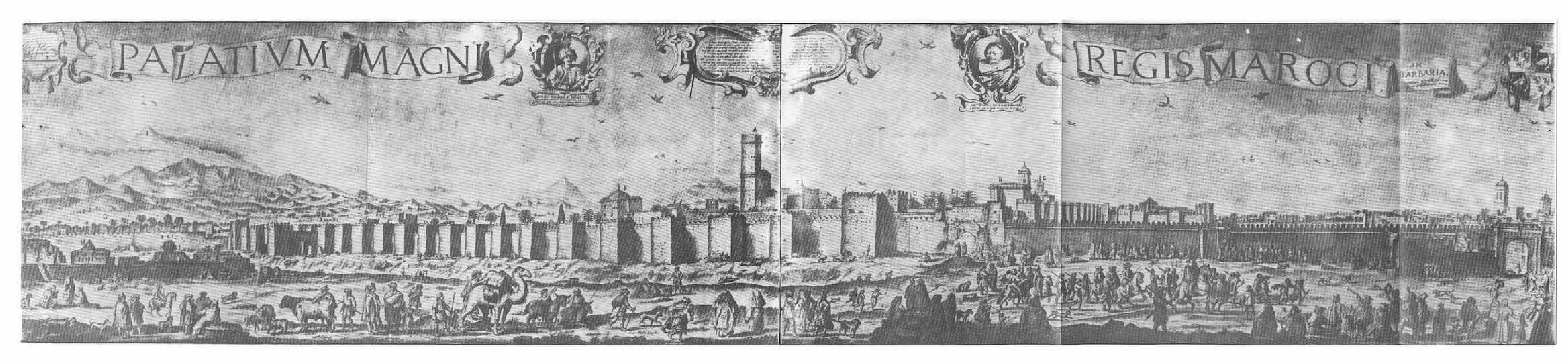
من عجائب الدنيا

بواعث تشييده
وظروف تخريبه
وعمليات ترميمه



د. عبد الهادي التازي

الرباط يناير 1977



منظر لمراكش عام 1641 حسب لوحة (ادريان ماتـام)
المحفوظة فى امستردام

قصر البديع بمراكش

من عجائب الدنيا

بواعث تشييده
وظروف تخريبه
وعمليات ترميمه

د. عبد الهادي التازي

الرباط يناير 1977

قصر البديـــع بمراكش من عجائـــب الدنيـــا ...
بواعث تشييده وظروف تخريبه وعمليات ترميمه

لقد مهد المؤرخ الفشتالي للحديث عن قصر البديـــع فى كتابـــه (المناهل (1)) بأن المنصور السعدي « أخمل به ذكر ما صنعه بنو العباس ببغداد وبنو مروان بالشام وبنو عبيد بالقاهرة ... وسائر ما يعزى الى أولى السلطان الاكبر من القياصرة والاكاسرة » . وقد خشى الفشتالـــي ـمع ذلك ـ أن لا يوفى بحق الوصف فاعتذر للذين يقفون من بعـــده على هذا الاثر الجليل فيجدونه « أجل وأعظم وأفخر وأبهر وأخطر وارحـــب وأوسع وأرفع مما قرأوا على حد تعبير المؤلف المذكور » .

وأحب باديء ذي بدء أن أبرز الاهمية البالغة التي يكتسيها وصـــف الوزير الفشتالي للقصر المذكور ، ذلك الوصف الذي يظـــل المرجـــع الاساسي لكل الذين يكتبون عن هذه المعلمة ســـواء من المؤرخيـــن او المعماريين (2) ، كما أشير من جهة أخرى الى ان كثيرا ممن كتبوا عـــن القصر بلغة غير العربية تعرضوا لبعض الهفوات فى التقدير والافتراض وخاصة منهم الذين لم يتمكنوا من استشارة نصوص الفشتالي التي كانت فى حكم المفقـــود ...

---

(1) القصد الى (مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا) للوزير الكاتب أبي فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي ، وهو يقع فى عدة مجلدات على ما يقوله المقري فى نفحه واليفرني فى نزهته ، وقد نشر الاستاذ عبد الله كنون مخطوطا مختصرا للمجلد الثاني عام 1964 ، وظهرت بالخزانة الملكية مخطوطتان لهذا المجلد احداهما تحت رقم 274 وثانيتهما تحت رقم 5182 .. وقد نشر المجلد المذكور عام 1972 عبد الكريم كريـم وهو من مطبوعات الاوقاف بالرباط .

(2) نرفق هذا العرض بالنص المتعلق بالبديع من المناهل ، مصححين ـ قدر الامكان ـ بعض الاخطاء معوضين بعض الفراغ فيما نشر من المخطوط لحد الآن .

ومن حسن الحظ حقا ان يقدم الفشتالي وصفه كشاهد عيان لذلك القصر الذي لم يبق منه ـ مع الاسف ـ ما يستوقف الزائر أو يثير انتباه العابر ، ولقد حبب الي وأنا أستعرض القصور الخلافية التي كان يتم فيها استقبال البعثات الدبلوماسية الواردة ، عبر التاريخ ، على ملوك المغرب أن أقف عند الحديث حول قصر البديع وملحقاته فى محاولة لجمع شتات القول ، بهذا العرض المقتضب ، لبعض ما كتب عنه من طرف المغاربة او الاروبيين ، مقارنا بين آثار هؤلاء واولئك ، ومسترشدا بالحفريات الحديثة ومتخلصا للاسباب الحقيقية التي كانت تكمن ـ فى نظري ـ وراء التضحية ببقايا ذلك المبنى العظيم ...

لقد اعتاد الملوك المغاربة أن يخلدوا انتصاراتهم الكبرى بتشييد مبان معلمية تكون فى مستوى تلك الانتصارات ، وهكذا فعلى نحو ما قام به المنصور الموحدي من بناء الجوامع الثلاثة : (الخيرالدا) فى اشبيلية، والكتبية في مراكش ، وحسان بالرباط ، فى أعقاب انتصاره بموقعة الارك (ALARCOS) بالاندلس ، على نحو ذلك شرع المنصور السعدي على انتصاره على الجيش البرتغالي ومصرع الملك سباستيان فى وادي المخازن ، وبعد خمسة شهور من المعركة (شوال 986 = دجنبر 1578) فى بناء قصر البديع شرقي القصبة التي كانت بالامس ديارا للموحدين ، وذلك اشادة بمكانة آل البيت فى الجهاد واظهارا لمقامهم الشريف كما ينقل الفشتالي عن المنصور السعدي ، ولقد حرص عدد ممن اهتموا بتصميم القصر من الاجانب ـ على معرفة اسم المهندس المعماري الذي رسم خطوطه الاولى ... والذي لم يكن غير أمير المؤمنين المنصور الذي كان يسهر ـ مع ذلك ـ بنفسه على تنفيذ تصميمه المستوحى دون شك من بعض القصور الاندلسية ...

ولا بد من التذكير بأن قصر البديع ـ وهو البناية الخاصة بالعاهل ـ اطلق على سائر « المجمع » الذي يقع بجانب البديع بما فى ذلك الدار الكبرى بما تحتويه من قباب ورياض ومرافق ...

ولعل اسم البديع ــ علاوة على ما يدل عليه من معنى جميـــل ، كان تلميحا للاسم الذي تحمله احدى قباب قصر قرطبة او الذي يحمله أحد الرياض التي كانت متفيئا للحماديين ثم للموحدين فى باجة .

ونظرا لضخامة المشروع السعدي ، نجد اعمال البنـــاء الكبـــرى تستمر طيلة ست عشرة سنة كاملة أي أنها لم تنته الا بتاريـــخ 1002 = 1594 بل ان بعض الاعمال التكميلية استمرت الى ما قبيل وفاة المنصور سنة 1012 = 1603 حسبما تفيده رسالة صادرة عنه من فاس . يوصي فيها بتركيب سواري الرخام عند تسقيف بعض الجهات .

هذا بالرغم من ان الاشغال لم تتوقف صباح مساء،وبالرغم من حشد الصناع من كل حدب وصوب بما فى ذلـــك العمال الواردون من أروبا او المتواجدون بالمملكة ، وبالرغم من توفر المواد التي كانت تجلب فى الوقت المناسب من الشرق والغرب : من تنبكتو الى اوربا والهند والبرازيل ؛ ولا بد ان نتصور السوق الصاخب الذي كان يعقد يوميا لتغطية حاجـــة العمال والصناع بما يحتاجون اليه مما يذكر فى الاسواق الاسبوعية الكبرى

لقد كانت المميزات الاولى للقصر السعدي هذا العدد العديـــد من القباب التي تحمل أسماء جميلة وأوصافا دالة . فهنا قبة الخمسينية (3)، وقبة الزجاج (أو قبة الذهب) ، وقبة النصر ، وقبة التيجان ، والقبـــة الخضراء ، والحمراء والبيضاء ، والقبة العظمى التي أمر العاهل باختطاطها لاستقبال الوفود المتتالية من الممالك القاصية من المشارق والمغـــارب ، انها عشرون ، كل منها متحف قائم بذاته ، كما امتاز بطائفة من الصهاريج المختلفة المقاييس والمساحات وقد شيدت على أرض ارتفعت على أصول الاشجار حتى يستفاد من مائها لسقي الحقول المترامية تحتها فى الطبقة الدنيا مما يذكر فيما يحكى عن الجنائن المعلقة فى بابل ، وما يمكـــن أن يمثل ــ على سبيل التقريب ــ بقصر البطحاء (المتحف) بفاس .

---

(3) سميت كذلك لان فيها خمسين ذراعا بالعمل على ما يقول المقري فى النفح أو لان المصاريف عليها بلغت خمسين قنطارا على ما يذكره المعلق على روضة الآس ..

ولا ننسى فى هذا الصدد الدولاب العظيم (4) الذي كان يساعد على التحكم فى المياه صعودا وانعطافا والذي عرفته جنان فاس منذ عهد بني مرين ...

والحديث عن الحقول والرياض فى قصر البديع حديث مطرف ، فنحن أمام أدواح عبقة دائمة الخضرة ، فيها المشتى وكذلك روض المسرة (5) التي زارها المقري اواسط رمضان 1009 = 1601 فروى ان عدد ما اشتملت عليه من أشجار النارنج ستة عشر الفا ، عدا سواها من الشجر ، اضافة الى صهريجها العظيم ومبانيها الانيقة ، هذا الى بساتين اخرى تستأثر بأسماء ما تزال الآداب الشعبية تردد الاهازيج عنها وتنسج الاساطير حولها كجنان الصالحة (6) .

وقد ضرب الزخرف فى « البديع » فى علياء الفنون ، وطرزت جنباته وحتى أستاره بمقطعات شعرية نقشت بمرمر أسود على ابيض وكونت وحدها ديوانا بكامله صيغ على شتى الاوزان لكن القصر احتضن الى كل هذا عددا من رسوم النبات وعراجين الاعناب وتماثيل الحيوان من عقبان وحيات وأسود .. وهي ظاهرة استأثر بها التاريخ المعماري فى الغرب الاسلامي .

والحديث عن مرافق القصر يكشف عن تفوق (البديع) على كثير من المعالم الاثرية التي تعرف باسم عجائب الدنيا ويضيف بدائع أخرى يعتبر الحديث عنها ، على ذلك العهد من قبيل الخيال والافتراض ، ونشير على

---

(4) الدولاب ليس هو المركبة التي تحدث عنها السفير البرتغالي عند زيارته للسلطان المولى اسماعيل فى قصر البديع ، والتي قال عنها ان العاهل يدفع بها بواسطة محرك من داخل احدى القباب ليتفسح بها فى برك الرياض ، ويظهر ان هذه من منشئات أبناء المنصور ..

(5) كانت المسرة من انشاء الموحدين لكن المنصور أضفى عليها من عنايته ما أعاد بهجتها وكانت تقع حيث أكدال الحالية . الدر المنتخب لابن الحاج ، مخطوط فى الخزانة الملكية ، رقم : 1875 .

(6) تتصور المرددات الشعبية جرادة رعت من فواكه جنان الصالحة فتخاطبها هكذا :
ـأجردة مالحة ؛ * فاين كنت سارحة ؟ ـ * فى جنان الصالحة ؟
آش كلت ؟ وآش شربت ؟ * التفاح النفاح
يا قاضي يا مفتاح * الخ ..

الخصوص الى ما يمكن ان نسميه بالتدفئة المركزية التي كانت تنساب عبر الانابيب النحاسية بواسطة المياه المكيفة باردة ساخنة حسب رغبة الحاجة ! كما نشير الى الحمام الرائع الذي أعطى الفشتالي وصفا دقيقا له يترجم هو الآخر عن العبقرية التي طبعت الفكر المغربي .

لقد قام الحمام على خمسين عمودا وزود بأربعة أبواب فيها ما يفضي لقصر السلطان ، وفيها ما يؤدى الى قبة التيجان ، والى البديع والى باب القصر .. وقد قامت فى داخله تماثيل أسود من المرمر ينساب الماء من افواهها الى الحوضين المعدلين للهواء اضافة الى المسجد العديم النظير (7) .

وتتوفر غرف القصر ـ وخاصة منها غرف الحريم ـ على خزنة طعام متحركة تتجه وحدها بصفة آلية من المطبخ الى مقام الاميرات ، مما يشبه المصعد (Elévateur) المعروف اليوم فى الفنادق الكبرى .

وقد ضم القصر الى كل هذا دنيا أخرى من السراديب تحت أرضه تحتوي على عدد من المشتملات والبيوت والمقاصير والمخازن والمطابخ والمغاسل تمكن المئات من الخدم والحشم من أداء مهماتهم فى غيبة من الضيوف والزوار ، وبدون أن تظهر الاستعدادات الاولى للتحضير فيفاجأ المدعوون بما لذ وطاب من مباني القصر السفلى التي كانت تتوفر على « الضياء الفائض الشعاع النافذ من خلال الشبابيك الحديدية » .

وقد فاقت « مدينة المماليك » التي خططها العاهل بين قصره وبين مدرسة الامراء ، فاقت بما يجري تحتها من جداول وأنهار ، بغداد ودجلتها وجلق وغوطتها وقاهرة مصر ونيلها على حد تعبير الفشتالي . هذا علاوة على (برج الامن) على مقربة من البهو الذي ينفذ الى المسرة من القبة العظمى حيث الانفاط القاذفة لمارج البارود وشواظ النار ...

---

(7) تذكر بعض المصادر الاروبية ان قصر البديع لا يتوفر على مساجد ، وهو تساهل واضح فقد كانت المساجد مثبثة فى جل جهاته كما يفيده الفشتالي .

ولقد استطاع هذا المؤلف بوصفه الرائع أن يقدم تخطيطا مضبوطا لا يقل عن التصميمات واللوحات التي رسمها المهندسون والفنانون الاروبيون الذين تواردوا على العاصمة المغربية أو كانوا مقيمين فيها بحكم ظروفهم .

وهكذا تجلت بفضل تصميم برتغالي مخطـوط فى الاسكوريـال ، للقضية السعدية ، خط منذ سنة 1585 أثناء بناء البديع ، وبفضل تصميم ثان أعده المهندس المستشرق كوليوس (COLUIS) أحد أعضاء البعثة الهولاندية (8) برئاسة ألبير ويل (ALBERT RUYL) الذي استقبل من لدن السلطان زيدان بقصر البديع يوم 10 شوال 1032 = 7 غشت 1623 ، هذا التصميم الذي أورده ويندس (Windus) فى كتابه عن السفـارة الانجليزية برئاسة ستيوارت لدى بلاط السلطان المولى اسماعيل بمكناس أورده – تساهلا – على أنه تصميم القصر الملكي بفاس ، بفضـل هذين التصميمين . تجلت بعض الجوانب من نصوص الفشتالي حول البديع .

كما تأكدت تلك المعلومات القيمة عن طريق الافادات التي قدمهـا بعض الذين شاهدوا أو سمعوا من الاجانب عن قصر البديع من أمثـال الرسام أدريان ماثام (ADRIEN MATHAN) الذي رافق بعثة دبلوماسيـة هولاندية استقبلت بقصر البديع فى أوائل ذي الحجة 1050 = منتصف مارس 1641 من طرف السلطان محمد الشيخ بن زيدان والذي نعت قصر البديع بأنه « أعجوبة العجائب (9) » (Le merveil des merveilles)
وكذلـك من امثـال طوماس لوجانـدر
وأمثال الاب ماثياس (Mat'as) ... وكذلك من أمثال السفير البرتغالي انطونيو دى سيلفا (Antonio de Silva) الذي استقبل فى قصـر البديع من لدن السلطان المولى اسماعيل سنة 1088 = 1677 .

وان أحدث تصميم يمكن أن نتصور به مباني قصر البديع هو الذي خططته ، مشكورة ، مصلحة الآثار أثناء الخمسينـات والـذي نشـره

---

(8) عن طريق هذا المستشرق كوليوس انتقلت مخطوطة تاريخ ابن صاحب الصلاة حـول الموحدين انتقلت من المغرب الى هولاندا قبل أن ترحل الى انجلترا حيث تحتضنهـا مكتبة بودليان باكسفورد . راجع مقدمتي حول هذا الكتاب ..

(9) دوكاترى : هولاندا المغرب س 1 م 4 ص 572 .

البروفيسور دوفيردان فى الستينات تكملة الكتابه عن مراكش مصحوبا بجملة من التفسيرات والايضاحات التي تحتاج لبعض التعقيبات فى ضوء المعلومات القيمة التي قدمها الفشتالي .

لقد ظل الحديث عن المبنى الخاص لسكنى السلطان المنصور فى الجانب الشرقي ، والذي أطلق اسمه (البديع) على سائر القصور والقاعات الملحقة به ، ظل عاما يكتفي بأنه « ترجمان العجائب » وبوصف الايوان العظيم الذي يشرع اليه منه فى مدخل لا تحصى اياته . . .

لكن الدار الكبرى التي يفضي اليها من قصر البديع هي التي نالت الحظ الاوفر من الحديث المنثور والمنظوم .

لقد دارت قوراؤها على خمسمائة عمود من المرمر بينما قامت القباب والبراطيل (10) على مائة منها ، وتوسطها فناء فسيح الارجاء يبلغ 135 ميترا طولا على 110 عرضا : هكتارا وأربعة آلاف وثمانمائة وخمسين مترا مربعا : 14850 .

وفى هذه الساحة تمتد البركة العظيمة المستطيلة من 90 مترا على 20 = 1800 ، وقد انتصبت وسطها خسة (11) كبرى من المرمر تحتوي على حوضين اثنين يعلو أحدهما الآخر ، وتنتهي بأنبوب تتفجر منه المياه ، ويمكن الاقتراب من الحوضين المتراكبين بواسطة ممرات حملت على سواري من رخام .

وعلى ضفتي هذه البركة يمتد على مستوى منخفض سماطان أطول قليلا من البركة حافلان من 34 مترا عرضا غرسا بأدواح الاشجار والزهور المختلفة الالوان ، وقد ازدانا بمماشي طرزت بالزليج المنمنم على اختلاف الالوان .

---

(10) البراطيل جمع برطال وهي الاصطلاح المغربي ، عبارة عن ممر مقنطر ، وقد يسمى أيضا النبح ...

(11) الخسة : فى العامية المغربية : حوض من المرمر يتوسطه أنبوب يندفع بالماء يشبه شكله شكل الخص : البقل المعروف وباسمه سميت فكأنها خسة مفتوحة ، وينطق بها العامة بالصاد بدل السين .. على ما يقوله الاستاذ كنون فرارا من معنى الخساسة

وفى زوايا تلك الساحة الكبرى توجد اربع برك أخرى مستطيلة من 30 مترا على عشرة .. والبرك جميعها يمكن النزول اليها بواسطة درج مزلجة هي الاخرى .

وبين البرك الاربعة الصغيرة ، وعلى الطرفين الطويلين للبركة الوسطى للبركة الوسطية الكبرى ترتفع قبتان عظيمتان احداهما غربية وهي « الخمسينيه » التي ينتصب فى الرفرف المحيط بها تمثالان لعقابين عظيمين ، وقد امتازت الخمسينية بسقفها البالغ أقصى مبالغ الجفوة ، وقد بلغت المنارة التي تسنم المعلمون ذروتها لتأليف السقف الضخم سبعمائة حمل من أخشاب الارز ومائة قنطار من الحديد ... وقد شقها حوضان انيقان تتوسطهما فوارات وتماثيل مذهبة ومفضضة بين أسود وحيات وطيور (12) وبين الحوضين تربعت خسة غريبة الشكل بديعة التركيب ساحرة اللون .

وللخمسينية بهو فى صدرها ذهب بكل محاسن البناء ... وقد افرغ الفنانون فى أبوابها الثلاثة ومصاريعها وعضاداتها قمة ما يتوفرون عليه ...

وبين يدي كل باب فوارة ضخمة متباعدة القطر ... امتد منها ذات اليمين وذات اليسار برطال عريض الساحة متعدد الاقواس ، القائمة على سواري من حجر كريم اليصب (jaspe) ويعلو الخمسينية تيجان متعالية نقص عدد تفاحات أعمدتها عن عدد تفاحات صوامع المساجد الكبرى أدبا وتواضعا ...

وفى مقابلة الخمسينية تنتصب فى الجهة الغربية (قبة الزجاج) ، وهي من مساحة 15 م على 16 : 240 متر مربع ، وقد علا سقفها قطع من

---

(12) يقصد بالطيور دون شك الصقور والبزاة ، وهي من المعلوم ان المنصور السعدي كان كأسلافه ملوك المغرب القدامى من هواة القنص بالصقور وشهد بذلك المراسلات والبعثات الدبلوماسية التي كانت ترد من والي أوربا تحمل معها الهدايا التقليدية : الصقور والبزاة مع ما يصحبها عادة من تجهيزات تتمثل فى (البرقع) ومن الجلجل والخلخال والسمايك ومجادل الحرير .. التازي : الصقور فى الحياة المغربية ، البحث الذي قدم للملتقى الدولي لدولة الامارات العربية المتحدة ، دجنبر 1976 .

الزجاج (الكريستال) الملون ، فاذا اشرقت الشمس عليها « رأيت نعيما وملكا كبيرا » على حد قول الفشتالي ، وقد احتلت وسطها فوارة من مرمر اخضر زادت فى بهائها وجمالها ، وقد اكتنف ابوابها الثلاثة برطال عريض تعانقت فيه أعمدة المرمر فى مناجاة دائمة ، وقد تنوع سقف برطال قبة الزجاج الى سبع قباب ، تحت كل منها فوارة ...

واذا كان بهو الخمسينية موصد على ما يبدو فان بهو قبة الزجاج يشرع منه الى (روض المشتهى) بواسطة باب عظيم رائــع التطريــز والتوشيح ، وقد حملت القبتان الخمسينية والزجاجية على اثنتي عشرة سارية من أجود وأرفع الرخام ، ويمكن أن تعتبر القبة التي بناها المنصور السعدي على الخصة المهداة منه ـ كذوقة ـ لجامع القرويين والتــي حملت على اثني عشر عمودا رخاميا شرقي الصحن ، مثلا صفيرا يقرب الصورة الكبرى .

واضافة الى هاتين القبتين توجد قبتان اخريان احداهما شماليــة وهي (قبة النصر) ذات المحاريب والخزائن والمنافس لامتصاص دخان الشموع ... وقد امتاز سقف بهو هذه القبة بأنه صنع من منحوت العاج والابنوس وكأنما رقمت بالابر اللطيفة ، وقد انتصب أمام القبــة فــوارة عظيمة ترقص بالمياه المتصاعدة بينما انعطف برطالها يمينا ويســارا على قسي تعتمد على سواري رشيقة من رخام ...

ويساجل قبة النصر على الضفة الجنوبية (قبة التيجــان) ، ذات الابهاء الفسيحة وقد امتازت عن غيرها بابدع الصنائع المقربسة التــي وشت وجناتها بشامات زرق من سحيق اللازورد المزمل بالنظار الفائض الشعاع على المحاريب والمقاصير ، وحسب لوحات الرسام أدريان ماثام الذي رافق السفارة الهولاندية فان هذه القبة مخصصة للحريم ...

وهاتان القبتان اكبر مساحة من السابقتين ، اذ انهما من 15 على 23 مترا أى ان كلا منهما يحتوي على 345 متر مربع ، وهما تتأخران قليلا عن المشى الممتد شرقا وغربا ...

وفى كل زاوية من الزوايا الاربعة شيدت ردهة كبرى زودت هـــي الاخرى ببرطال لكل واحدة ... اضافة الى ما سمعناه عن القباب الخضراء والحمـــراء والبيضـــاء .

وتميزت أركان القصر الاربعة بمنارة تنتصب فى كل منها ، على نحو تصميم برج النفار بجامعة القرويين (13) واستأثر احد هذه البروج ــ وهو الواقع فى الركن الشمالي الشرقي على ما يوخذ من الوصف ــ بأنه يؤدى الى المنزه او المصرية (14) الشامخة ، المرتفعة على القبة الخضراء والمطلة على رياض المسرة والتي كانت تسامي منارة الكتبيين .. « ذات العرف الاثيرة والشراجب البديعة والمجالس الكريمة » التي يشرف منها العاهل على شتى الاطراف .

واذا كانت عظمة البيوت تتجلى فى أبوابها فان البديع احتـــوى على أبواب رئيسية وثانوية سواء فى الشرق او الغرب او الجنوب لكن اعظمها كان هو باب الرخام الذي يقع عند الركن الغربي الجنوبي ..

+ × +

وقد اجتمعت كلمة زواره من الدبلوماسيين او الرسامين او الاسرى على انه تحفة العصر وعنوان العظمة ودليل التوازن ، وما بالك بقصـــر جلب بعض مواده من أقاصي الدنيا وأرسلت السفارات لايرلاندا من اجل ارضاء مطالب المنصور حوله ... واشترى رخامه من ايطاليا وزنا بوزن ــ بالسكر الذي كانت تنتجه المعاصر والمعامل المتناثرة فى الجنـــوب والذي كانت القصور الملكية فى أوربا تتباهى بتقديمه لكبـــار ضيوفهـــا وزوارهـــــا ...

---

(13) من المهم أن نلاحظ فى لوحة ماثام سنة 1641 بل وفى رسم ثان من لعلى باي سنة 1803 برجا يظهر كانه جوار منارة الكتبية يشبه تماما مما يجعلنا نعتقد أن برج مراكش ــ وهو آثار البديع ــ صمد الى مطلع القرن التاسع عشر ...

(14) المصرية : تعني فى الاصطلاح المغربي البيت الصغير المحمول على مرافق الدار ، لكن مصرية قصر البديع كانت تناسبه عظمة وروعة ..

وهكذا تتفق الرواية العربية مع الرواية الاحرى على انه كان « جنة على أرض مراكش » .

ومن هنا انطلقت ألسنة الشعراء متبارية فى تقديم أجود الشعر الذي يحظى بالنقش على أبرز الجوانب وأهم القاعات سيما وقد صادف الاعداد للاحتفال وصول البشريات بفتح (كاغو) عاصمة امبراطورية شنغاي ذلك الفتح الذي تم يوم 16 جمادى الاولى 999 = 12 مارس 1591 .

وقد كان مما انشد فى هذا « البديع » ما نظمه المنصور السعدي نفســــــه :

بستان حسنك « ابدعت » زهراته ولكم نهيت القلب عنها فما انتهى

وقوام غصنك بـ « المسرة » ينثني يا حسنه رمانة لـ « المشتهـى »

وقـــال ايضـــا :

نهر المســـرة ان يســـــــل منه الرحيـــق الاطيـــــــب

الطيـــر منهـــا تنتقـــــــل والغصن فيهـــا يشـــــرب

وقد كان مما نظمه ابو فارس عبد العزيز الفشتالي فى الدار الكبرى بائية أورد المقري بعضها معتذرا بنسيانه لاولها :

سلبت تماثلها الحجا لما اغتـدت تزهو بحسن طرازه تذهيبـــا

ولقد تشامخ فى العلو سماكهـــا فجرا على الفلك المنير جنيبـــا

وسما الى الشهب الزواهر فاغتدا الاكليل منها تاجها المعصوبـــا

هذا البديع يعز ، شبـــه بدائـــع ابدعتهن به فجـــاء غريـــــبا

أضنى الغزالة حسنه حسدا لـــه أبدى عليها للاصيل شحوبـــا

شيدتهن مصانعـــا وصنائعـــا أنجزن وعدك للعلا المرقوبـــا .

+ × +

فانعم بملكك دام فيه مؤبـــــدا يجنى به فنن النعيم رطيبـا ...

وكان مما قيل فى البديـــع كذلـــك :

كل قصر بعد البديـــع يـــــذم فيه طاب الجنا وفيـــه يشـــــم

منظر رائق ومـــاء نميــــــــر وثرى عاطر وقصر أشـــــــم

ان مراكشـا به قـــد تناهـــــت مفخرا فهي العلا الدهر تسمـــو

وقد أسهمت الموشحات فى الاشادة بهذا البديـــع على ما يرويـــه المقري فى « روضته » التي أوردت قطعة لم يعرف صاحبها نذكر منها :

بـــدر عـــلا فى البديــــــع منــــــازلا كـــالــــــدراري

فيا لـــــه مـــن صنيـــــــع الروض والمـــاء جــــــاري

ومما يستجاد فى « البديع » قول أبي مالك عبد الواحد بن أحمد بن الشريف الحسني العلوي فى سقف قبة الزجاج (15) :

اجل اللواحظ فى رقوم لباســـي فلها به حرس من الاحـــــراس

فمتى نظرت فان طرفك مـــورد للقلب اعذب من رحيق الكـــاس

ومتى تنافست القباب فانـنـــــي ببدائع الفردوس كان قياســـي

او ما رأيت النهر تحتي جاريـــا والدوح يعبق من حنايـــا آس !

+ × +

---

(15) ورد فى ((رسائل سعدية)) أنه سئلت منه قصيدة لنقشها فى سقف قبة الزجاج ؛ فأجاب بانها من بحر الكامل على روى السين المهملة . راجع نص جواب ابى مالـك عبد الواحد اوزير القلم المنصـوري ابى عبد الله محمد بن عيســى رحمـه الله . كنـــون : رسائل سعديـــة ، ص 210 – 211 .

من كل قطر وافدين وفدفـــد — متباين الاوصاف والاجنـــاس
والعجم من أقصى البلاد عنت له — فزعين فى الآجام والاخيـــاس
فأتت تخوض البحر من قسطينة — وتشق كل ثنية ووهـــاس
والروم جاءت رسلها من رومـــة — متخوفين لبطشـــه والبـــاس
فلا أطاول للثريـــا أذنهـــا — والبهو مني كاشف الاغلاس ...

وقد اسهم الوزير أبو فارس الفشتالي بطائية طويلة كانت مما نقش بظاهر القبة الخمسينية ، يقول منها :

سموت وخر البدر دونى وانحطـا — واصبح قرص الشمس فى أذنى قرطا
اذا اتسقت بيض القباب قـــلادة — فاني لها فى الحسن درتها الوسطى
تكنفني بيض الدمـــى فكأنهـــا — عذارى نضت عنها القلائد والريطا
قدود ولكن زادها الحسن عريهـا — وأجمل فى تنعيمها النحت والخرطا
نمت صعدا تيجانها فتكســـرت — قوارير افلاك السماح بها ضغطا

+ × +

اقرت له «الزهراء» و«الخلد» وانتقت — أواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا
يد لامير المؤمنين بكفهـــا — زمام يقود الروم والفرس والقبطا

وكان مما نقش بداخل القبة الخمسينية من شعر أبى فارس :

جمال بدائعي سحر العيونـــا — ورونق منظري بهر الجفونـــا
علوت دوائر الافلاك سبعـــا — لذاك الدهر ، ما الفت سكونـــا
فصغت من الأهلة والحنايـــا — اساور والخلاخـل والبرنيـــا

هو المنصور حائز خطل سبـــق | وباني المجد بنيانا مكينـــــــا
وليث وغى اذا زار امتعاضـــــا | يروع زئيره هندا وصينـــــا !
امام بالمغـارب لاح شمســـــا | به الشرق اكتسى نورا مبينـــا

وكان مما نقش ايضا على بهو الخمسينية بمرمر أسود على أبيض مما يذكر — من حيث خطوطه — فى نقوش (تاج محل) بالهند ، ومن حيـــث فواراته مقام القيصر فى (بيتر سبورك) هذه الرائية التي نقتطف منها :

لله بهو عز منـــه نظيـــــــر | لما زها كالروض وهو نظيـــــر
شأوا القصور قصورها عن وصفه | سيان فيه خورنـق وسديـــــر
فاذا اجلت اللحظ فى جنباتـــه | ترتد وهو بحسنه مسحـــــور
وكأن موج البركتين أمامـــــــه | حركات سجف صافحته دبـــور
صفت بضفتها تماثيل فضـــــة | ملك النفوس بحسنهـا تصويـــر
ما بين آساد يهيـج زئيرهـــــا | وأساود يسلي لهـن صفيـــــر
يا حسنه من مصنـع ! فبهـاؤه | باهى نجوم الافق وهي تنيـــــر

+ × +

ملك أناف على الفراقد رتبـــة | واظله فوق السمـاك سريــــــر
وجرى الى أقصى العراق لرعيها | جيش على جسر الفرات عبـــور

وللكاتب ابي عبد الله محمد بن علي الفشتالي حائية طويلة نظمها ايضا لتكتب على القبة الخمسينية جاء فى أولها :

الى حيث أطناب المعالي فســاح | وزند الاماني ليس فيها شحـــاح

+ × +

الى ان يقول فى معرض ظفر الجيش المغربي على الجيش البرتغالي فى معركة وادي المخازن :

وحسباك من (وادي المخازن) اذ طمـــــت
بحار الردى والخيل فيهـــا جمـــــــاح
فكان به كالصقر (16) ينقض ظافـــــــرا
تساعـد منـــه مخلـــب وجنـــــــاح

وقد نال الحايطي فى (الخمسينية) وهو فى العرف المغربي الستور التي تكسو الجدران ، نال حظه من الشعر ، وهكذا نجد بعض الكتـــاب يخصه بأربع قطع سينية كل واحد تخص جهة من القبة ، وقـــد كانـــت القطعـــــة الاولـــى :

متع جفونك فى بديع لباســـــي	وأدر على حسني حمى الكـــاس
هذى الربا والروض من جرعائهـــا	ماغتدى بالعارض البجــــاس
اني لروض ان يروق بهـــــاؤه	مثلى ، وان يجري على مقيـــاس
فالروض تغشاه السوام وانمـــا	تأوى الى كنفى ظباء كنـــــاس

وكانـــت القطعـــة الثانيـــة :

من كل حســن كالقضيب اذا انثنى	تزرى بعض البانة الميـــــاس
ولقد نشرت على السماك ذوائبى	ونظرت من شزر الى الكنـــــاس
وجررت ذيلي بالمجرة عابثـــــا	فخرا بمخترعي ابي العبـــــاس
ما نيط مثلي فى القباب ولا ازدهت	بفتى سواه مراتـب وكراســـي

(16) للحديث عن الصقر فى الحياة المغربية ... راجع البحث المقدم الى الملتقى الدولي للصقـــور ، دجنبـــر 1976 .

وكانـــت الثالثـــة :

ملك تقاصرت الملوك بعـــــزه ورماهم بالذال والاتعـــــــاس

غيث المواهب ، بحر كل فضيلـة ليث الحروب مسعر الاوطـــاس

فرد المحاسن والمفاخـر كلهـــا قطب الجمال اخو الندى والباس

ملك اذا وافى البلاد تأرجـــــت منه الوهاد بعاطـر الانفـــــاس

وكانـــت الرابعـــة :

واذا تطلع بدره من هالـــــــة يغشى سناه نواظر الجـــــلاس

أيامه غرر تجلـــت كلهـــــــا ابهى من الاعيـــاد والاعـــــراس

لا زال للمجد السنى يشيـــــده ويقيم مغنـــاه على الاســـــاس

ما مال بالغصن النسيم وحببـت درر الندا فى جيده الميـــــاس

وحتى مستراح الخمسينية حرك من شاعرية الادباء فنجد الوزيـــر الشيظمي وقد استأثر بلبه جمال النقوش يقول ملمحا لتاريخ البناء :

اكتنف الحســن محلـــــى ولاح تاريخه من لفظ هو المستـــراح

وقد احتفظت (روضة الآس) ببائية لابي فارس لتكتـــب فى بعض ستور قصر المنصور او تنقش فى جدرانه ، قال فيها :

ما طراز الربا بأيدي الحســـاب واعتلال النسيم بين الهضـــاب

واحتفال الرياض بالنور لمـــــا رفع القطر عنه ثـوب السكـــاب

وكعاب تصمى اذا لاح منهـــــا بدر وجـــه مستر بنقـــــــاب

وحباب كالانجم الزهر يعلـــــو قرقفا لونها كلـون الشهـــــاب

خلع المزج ثوب تبـر عليهـــــا عندما قد أبان بـرد التهـــــاب

بمثير الغرام مثلى اذا مـــا   جال طرف ساحتي وجنابـــي

ان تأملت رونقـي واتهاجـــي   تتعرف حقيقتي وانتسابـــي

وارث المجد من علي ومن قــد   صير الكفر للردى والتبــاب

+ × +

همة المنصور الامـام الـذي لا   ينثني عزمه لغيـر صــواب

دام فى مقعد من العـز يـروي   من أمانيه كل فصـل وبـاب

وقد كان مما قاله الوزير الاديب ابو الحسن علي بن منصور الشياظمي مما نقش على (برطال) قبة الزجاج هذا البيت الاخير الذي يلمح فيـه لتاريخ اكمـال البنـاء :

ان شئت تاريخ كمال البديع فقـل   ايوان احمد ايوان السعـادات

ولم يكن حظ الجهات الاخرى بأقل منه فى القباب ، وهكذا نقرأ لابي فارس أيضا مما كتب على « المصرية » السالفة الذكر :

باكر لدى من السرور كؤوسـا   وارض النديم اهلـة وشموسـا

واعرج على غرفى المنير سماؤها   تلق الفراقد فى حماى جلوسـا

واذا طلعت بأوجها قمر العــلا   لا ترتضي غير النجوم جلوسـا

شرف القصور بريقها لما اجتلت   مني على بسط الرياض عروسـا

واعتضت بالمنصور أحمد ضيغما   وردا تخير من بديع خبسـا

دامت وفود السعد وهي عواكـف   تصل المقيل لدى والتعريسـا

وهناك يا شرف الخلافة دولـة   تلقى برؤيتها طلائـع عيســى

كما خصص أبو فارس لعضادتي باب لاحدى القباب وهو ينسب ـ مع كل هذا ـ سر عظمة البناء وجماله وحسنه الى الذين يسكنونه لا الى البناء نفسه :

يا ناظرا بالله قف وتأملي	وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتنقل	« السر فى السكان لا فى المنزل»

وله ايضا مما نقش على مصاريع بعض الابواب :

هدى وفود السعد نحوى تنتمي	وطلائع البشرى لبابي ترتمي
وسمت الى عرفان عرفك مثل ما	يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
حطت بمصراع السعود بشائر	لاحت على الشرفاء مثل الانجم
اولى بصنع ان تقول ولا تبل	فبديع احمد جنة المتنعم (17)

واذا كان المقري قد اكتفى بالاشارة لما نظمه الكاتب الشاعر الحسن المسفيوي حول البديع من موشحات طريفة فانه أورد مقطعات أخرى للوزير الاديب ابي الحسن علي بن منصور الشياظمي يقول فى احداها وهي باب الرخام وقد تضمن الاشارة لتاريخ بنائه عام 1002 :

الحسن لفظ وهذا القصر معناه	يا ما أميلح مرآه وأسناه
فهو البديع التي راقت بدائعه	وطابق أسم له فيه مسماه
صرح أقيمت على التقوى قوائمه	ودل منه على التاريخ معناه
ولاح ايضا وعين الحفظ تكلاوه	تاريخه من تمام : قل هو الله

وقال الوزير المذكور ايضا فيما نقش على هذا الباب الرئيسي :

---

(17) يذكر الفشتالي ان الخليفة المنصور انتقد استعمال كلمة الجنة فى هذه القطعة مما يؤكد الشعور الديني الذي كان يتحلى به الخليفة .

باب أتى كبراعة استهــــــلال ... وكأنما القصر القصيد التالــي !

ولذلك سمي بالبديع وجاء بالتجنيـ ... ـس والاغراق والايغــــال

واتى التمام فقلت فى تاريخه ... بيتا بلا عقد ولا اشكـــال

صرح على التقوى من الله انبنى ... فى طالع للسعد والاقبـــال

وقال ايضا فى تاريخ اتمام البديع :

يا مالكا ملكه فيمن ملـــك ... كطلوع الفجر من بعد الحلك

تم هذا القصر فاسكنه علـى ... حسن حال بدوام الملك لـــك

وقد سحرت (المسرة) كل الذين نعموا بأريج طيبها ولذيذ نعيمها . ومن المؤسف أن تسطو العثة على قصيدة أوردها المقري فى روضتـه تبتدىء هكذا :

أنا المسرة لا شيء يشاكلنـــي ... . من حل بي من لاعج الكرب . .

ومما قاله عبد العزيز الفشتالي :

دامت طيور السعد وهـي غـوادر ... (بالمشتهى) لك و(المسرة)تنطق(18)

لقد أصبحت مباني قصر البديع معالم بارزة فى العاصمة مما يشير اليه قول الكاتب النحرير محمد بن عبد الواحد الحسني وقد تراءت اليه من باب أغمات حيث ضريح العلامة ابن البنا ـ قبب البديع الاحمدي، قال :

انظر الى قبب البديع عشيـــة ... فبحسنها تتمتع الابصــــار

فكأنها قد شيدت من زبرجـــد ... وكأنما شمس الاصيل نظـــار

وهذا الشاعر هو الذي خاطب المنصور بهمزية يقول فيها من جملة ما يقـــول :

---

(18) المناهـل ص 140 ، عدد اكتوبر 1972 .

قد اصبحت حمراء مراكش بكـــم   من بعد ما طال عليهـــا عفـــــاء

تعنو لها البيضاء والسوداء والشهباء والخضراء والزرقاء

لقد كانت فرحة المنصور بالفة بانهاء أعمال البناء فى قصر الامـــة ، الامر الذي تترجم عنه الحفلات المتوالية الكبرى التي اقامها المنصـــور السعدي لمختلف طبقات الشعب ، وكذلك المبالغ الضخمـــة والهدايـــا الفاخرة التي نثرها على العمال والزوار والمدعوين (19) ...

وقد ظل البديع منذ نهاية البناء المركز الاول فى الدولة لتنظيـــــم البعثات الدبلوماسية التي رددت صدى القصر من مختلف دول أروبا .., وآسيا ... كما كانت محفلا يلتقي فيه أعيان الدولة بمناسبـــة الايـــام الاسلامية وبخاصة ليالي رمضان وأعياد المولد النبوي ، وخاصة أيضا بعد النصر الضخم الذي حققه المنصور على امبراطورية شنغاي والـــذي كان موجها فى الواقع ضد طموح العثمانيين لتطويق المغرب واكتساب نافـــذة على المحيط الاطلسي !

+ × +

لكن القصر ــ وهو على ما عرفنا ــ أمسى ، اثـــر وفاة المنصـــور السعدي ، واختلاف كلمة بنيه من بعده ، هدفا لعدد من اعمال التخريـــب الناتجة عن الصدام المستمر من اجل الاستيلاء على العاصمـــة مراكش ، وعلى مركز الحكم فيها : قصر البديع . وهذه هي الحقيقة التي تؤيدهـــا الروايات الاوربية كذلك .

وهكذا فبعد المعارك التي نشبت بين ابى فارس المبايـــع بمراكش سنة 1012 = 1604 وبين الامير زيدان وفرار هذا الاخير لتلمســـان ، شبت الحرب بين عبد الله بن الشيخ الذي نهض لمقاتلة عمه ابـــي فارس

---

(19) يروي اليفرني ان ممن دخل البديع أيام الاحتفالات احد المجاذيب وقد ساله المنصور مباسطا عن رأيه فى الدار الكبرى فأجابه بهذه الكلمة التي تطير منها المنصـــور : ((اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب)) .

فاستولى على العاصمة مراكش فى شعبان سنة 1015 = دجنبـــر 1606 مبيحا للجيش العيث والنهب ولا بد أن نتصور من الآن اثر هذه الاحداث على البديع : الحريق والتهديم والنهب .

ولم يلبث الامير زيدان ان عاد للعاصمة مراكش بعد أن كون محلة فى مهجره فاقتحمها اواخر 1015 = ابريل 1607 ولكن ليرجـــع عبد الله بن الشيخ من جديد فى السنة الموالية بعد حروب مضنية ينتصر فى نهايتها زيدان مرة أخرى ، شوال 1016 = يبراير 1608 بعد أن أمده حلفاؤه مرة أخرى ، وهنا نجد نية الامير زيدان تتجه لاعادة ترميم القصر حيث نجد صفقة مهمة لشراء العود (البقم) من البرازيل ، وقد مر العود فى طريقه الى المغرب عبر هولاندا حيث احتجز هناك رغم تدخل السفير حمـــو بن بشير حسبما تفيده رسالة من السفير الى الولايات العامة من (لاهـــاي) بتاريخ 18 نونبر 1609 . ومن المؤسف ان نشبت فى أعقاب هـــذا ثورة ابن ابي محلى سنة 1019 = 1611 الذي انتزع مراكش من الامير زيدان الذي استصرخ بأنصاره من جديد واستعاد بعد ثلاث سنوات فقط (20) مراكش بعد حروب مهولة كانت سبب خراب مراكش ، وعبثـــا كانـــت السفارة التي بعثها للقسطنطينية برئاسة عبد العزيز التغلبي من اجـــل الحصول على المزيد من العون فان عاصفة بحرية أودت بالعتـــاد الـــذي أرسلته القسطنطينية ...

وقد زاد فى محنة العاصمة مراكش تلك السلسلة من المجاعـــات الضارية والاوبئة الماحقة التي عكست أثارها على تلك القصور بما كانت تحتضنه من تحف وآثار !

وقد قصر من أيام السعديين أو بالحرى من حياة قصر البديـــع ان الوليد بن زيدان الذي خلف أباه فى الحكم لم يكن فى مستـــوى والـــده العظيم سلوكا وشهامة نفس ، وهو الذي أثر عنه جوابه لجنـــده الـــذي طالب بالمرتب ، بهذه الكلمة العابثة التي كانت سبب نهايته ، قال لهم :

---

(20) يرمز المؤرخون لايام ابن ابي محلي بهذه العبارة الدالة : ((قام (طيشـا) ومـات (كبشـــا) !)) .

« كلوا قشر النارنج بالمسرة »

لقد اجهز الجند عليه رمضان 1045 = يبراير 1636 ، وكانت نكبة اخرى لقصر البديع ، وبالرغم من محاولة ابنه محمد الشيخ (الصغيـــر) استتباب الامر لكنه لم يلبث أن لقى حتفه سنة 1064 = 1654 وتولـــى ابنه احمد الذي ثار عليه أخواله (الشبانات) فقتلوه سنة 1069=1659 بعد حصار لمراكش والبديع عددا من الشهور ...

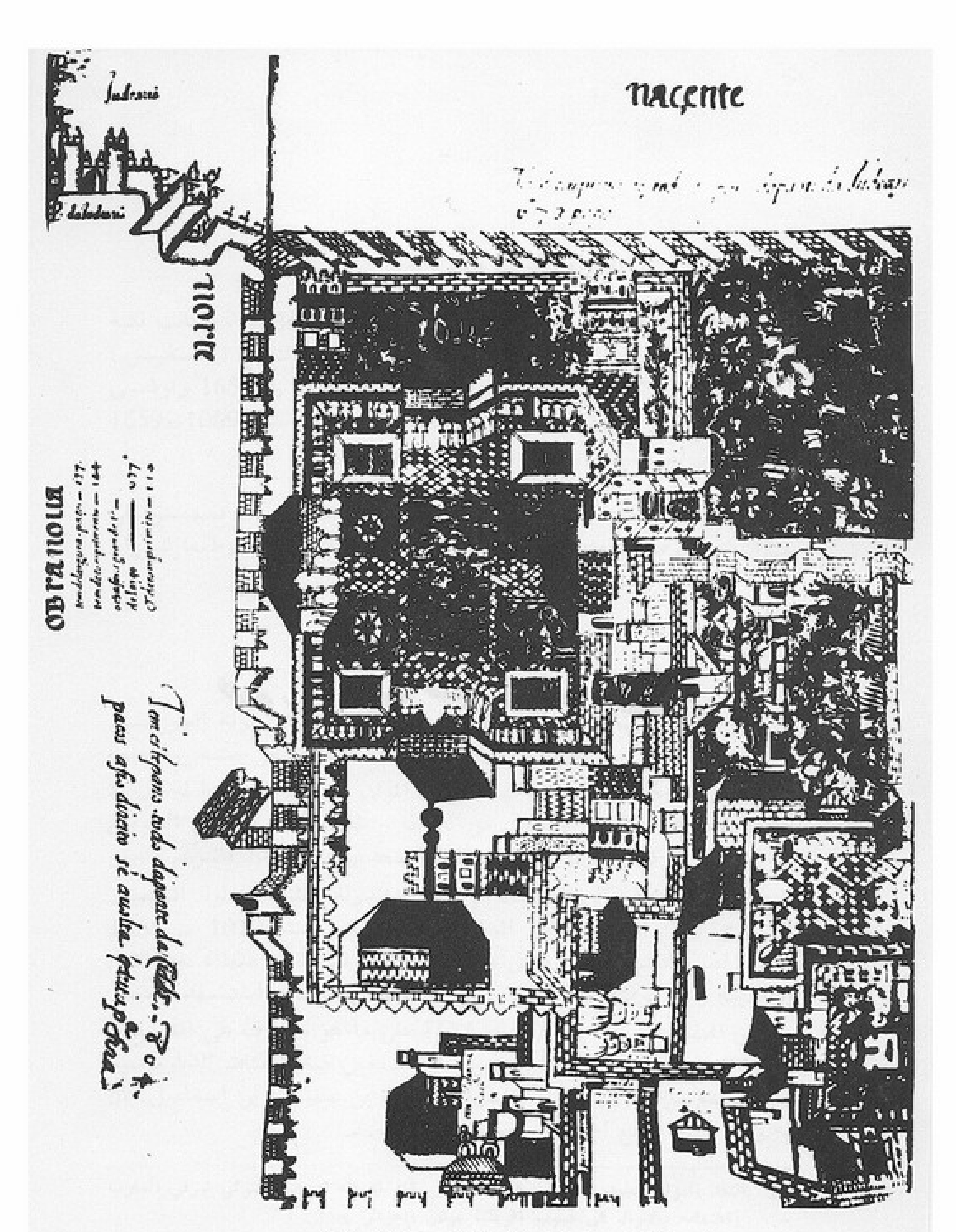
وهكذا نشاهد ان ذلك القصر الذي كان يترقب اعواما تسهـــر على صيانته وظروفا تساعد على العناية به أمسى عرضة للقذائف وطمعا للنيران ومثلا للاهمال ونهبا بين المتربصين والمتطلعين .

+ × +

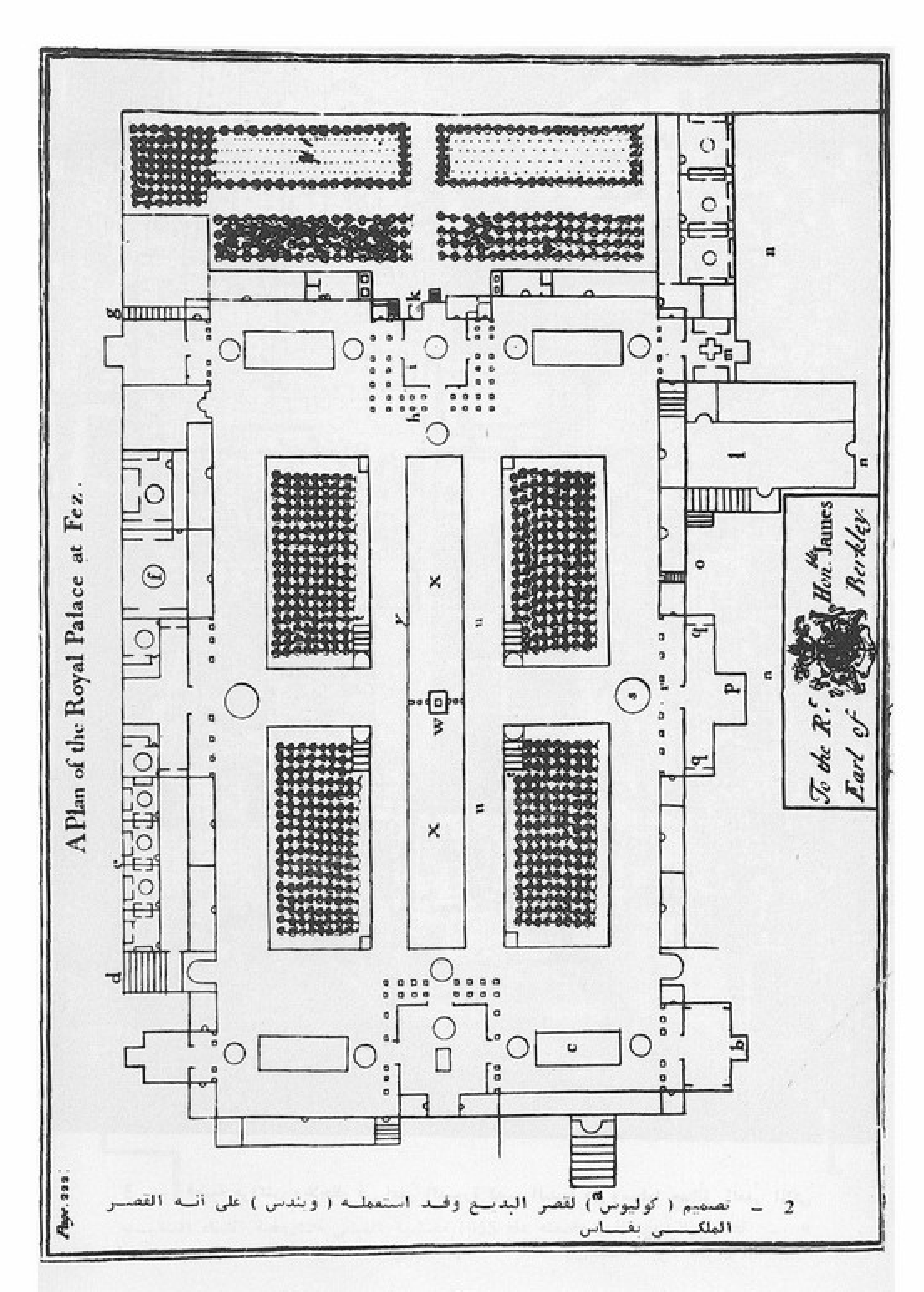
وخلافا لما كان يكتبه بعض المغرضين الاجانب عن دولة العلوييـــن التي تولت الحكم فى أعقاب السعديين من أنها كانت تشعر بقشعريرة غيرة وهي ترى عظمة قصر البديع وان السلطان المولى اسماعيل لم يهدأ له بال الا عندما هدم تلك المباني وتخلص من ذكرها ، خلافا لذلك نرى أن العلويين لم يكن لهم مركب اطلاقا ازاء منشئات السعديين ، وهكذا فالبرغم مـــن انتقاد المولى محمد بن الشريف أول ملوك الدولة العلوية لسلوك المنصور السعدي (21) نجد السلطان المولى الرشيد يقيم سنة 1079 = 1668 بنفس قصر البديع عندما دخل مراكش مطاردا للشبانات عنها ، بعد الايام العصيبة التي عرفتها العاصمة .. بل ان المولى الرشيد استشهد وهـــو بروض المسرة فى عام 1082 = 1671 على ما هو معروف فى التاريخ ، ونرى السلطان المولى اسماعيل من بعده استقبل فيه البعثات الدبلوماسية بل ونسمع من بعد أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل كان له ولوع زائد بتتبع أخبار المنصور الذهبي ...

(21 انتقد المولى محمد المنصور فى احدى رسائله اهماله الوجود التركي شرقي المغرب واهتمامه بالاتراك فى جنوب افريقيا عوض الجزائر .

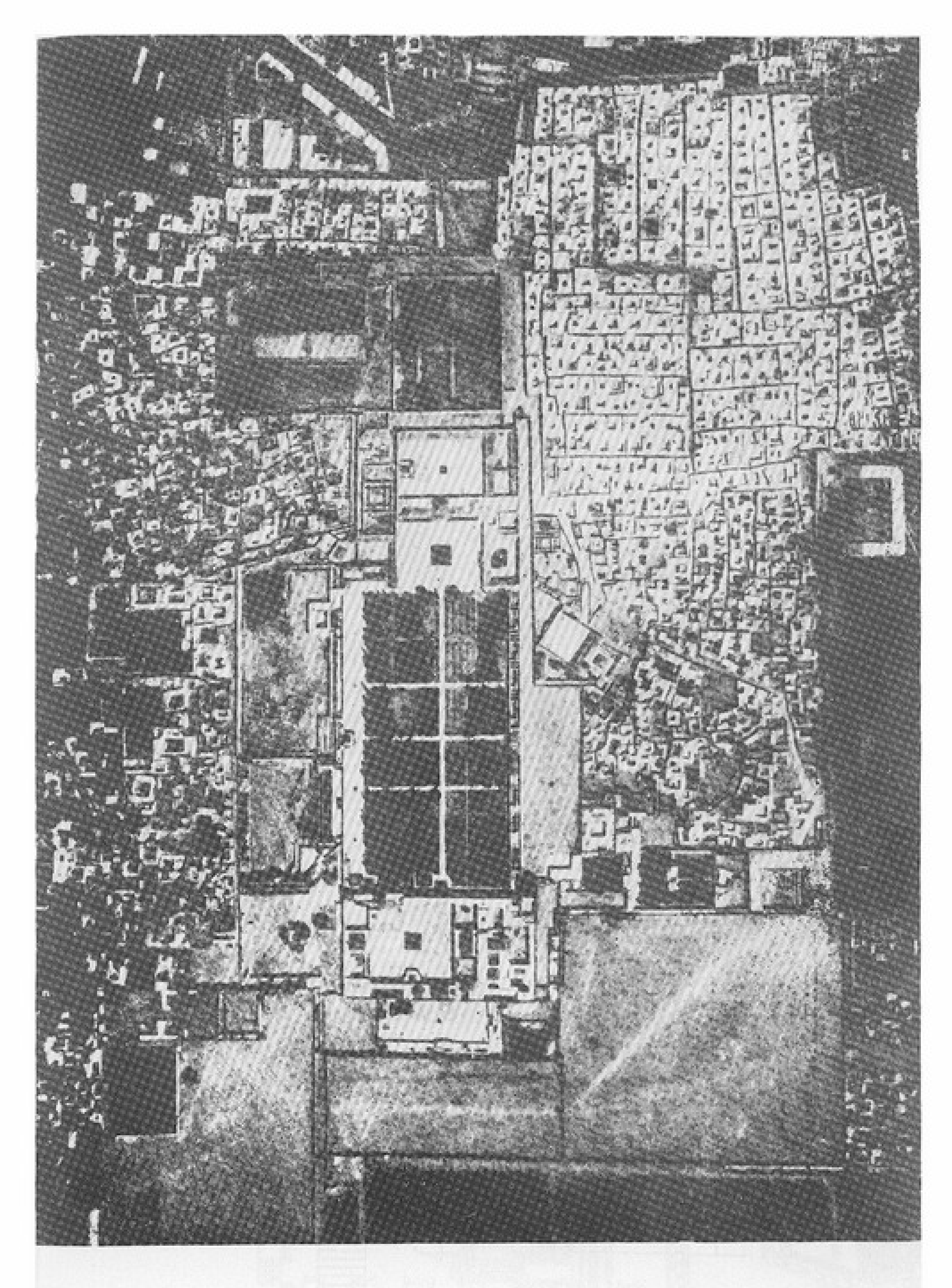
صور وتصاميم قصر البديع



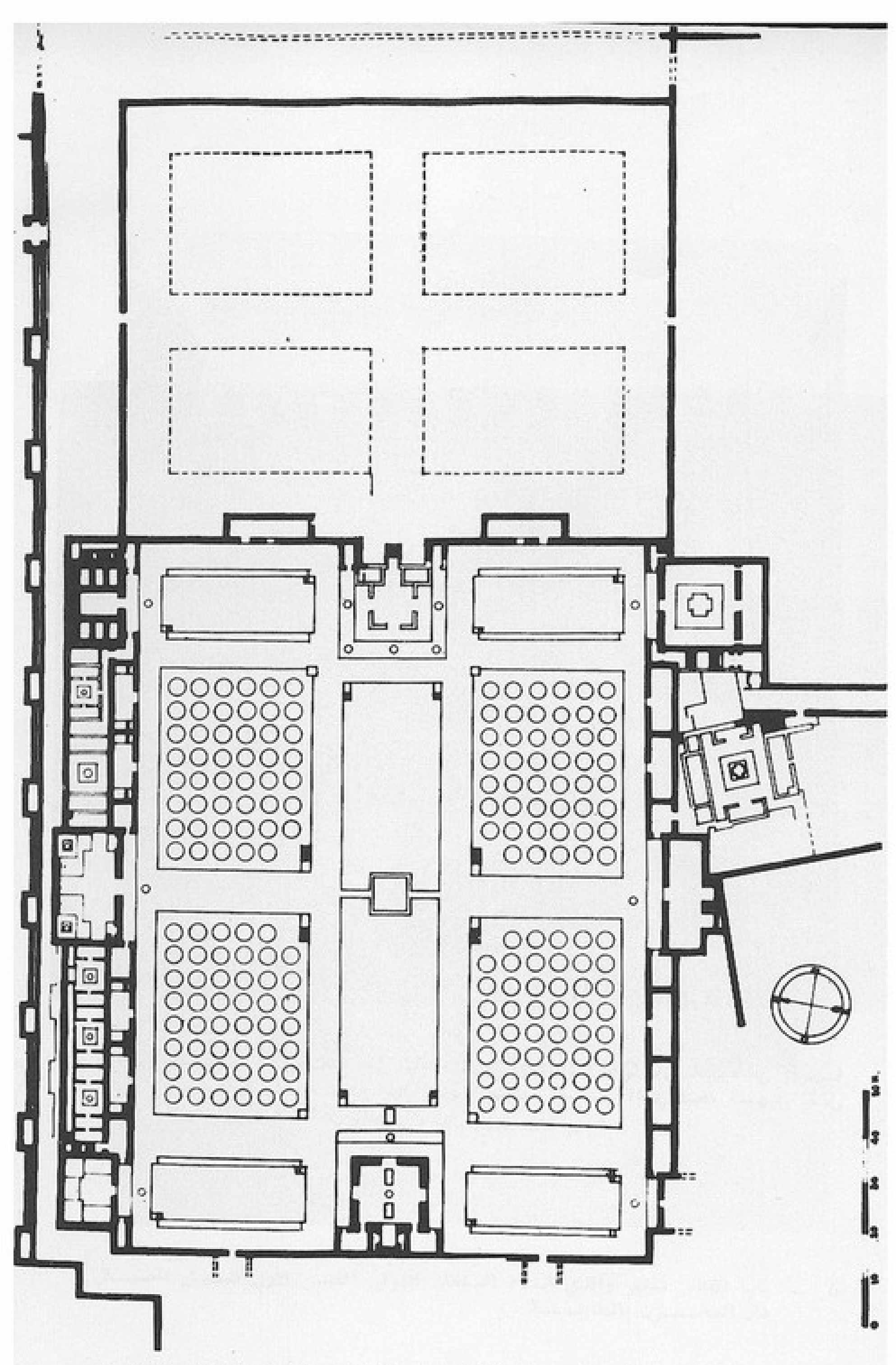
1 ـ التصميم البرتغالي للقصبة السعدية عام 1585



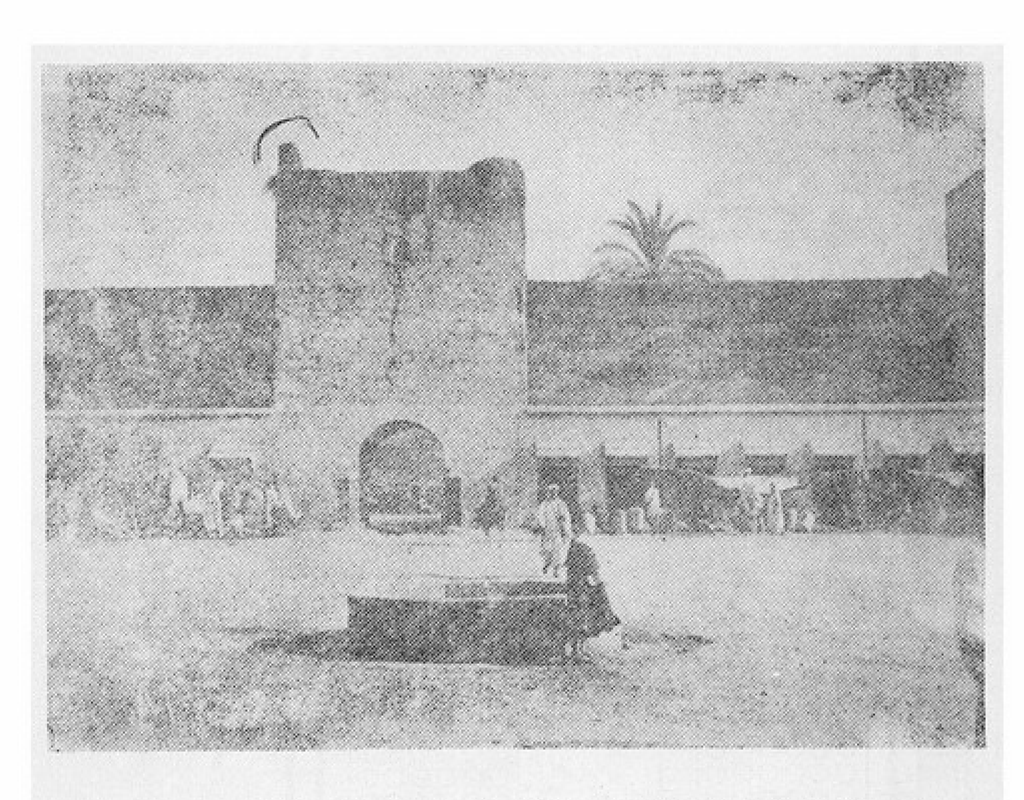
2 ـ تصميم (كوليوس[28]) لقصر البديع وقد استعمله (ويندس) على أنه القصر الملكي بفاس



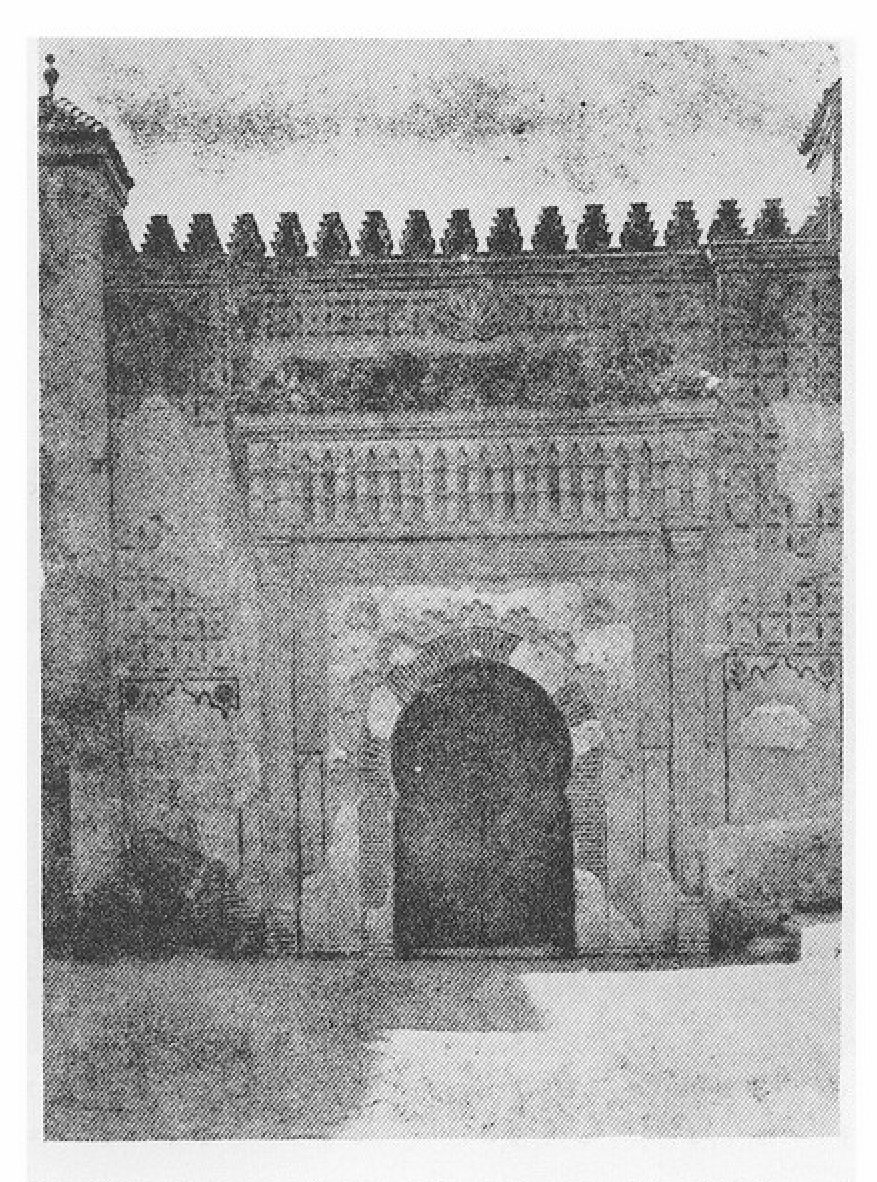
3 ــ قصبة مراكش ويلاحظ فى أعلى الصورة قصر البديع وفى وسطها حدائق القصر الملكي



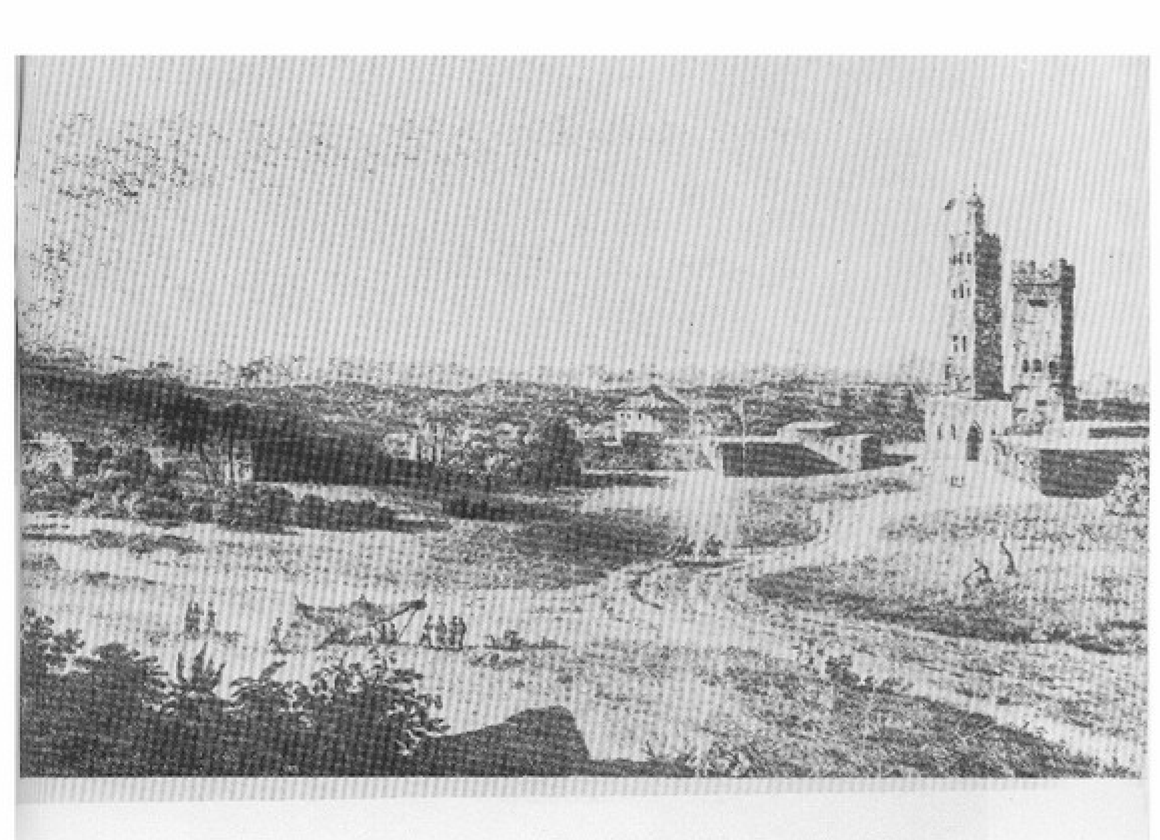
4 – تصميم البديع الذي وضعته عام 1955 مفتشية المباني التاريخية أثناء التنقيب (راجع النص)



5 ـ باب بريمة الذي ينفتح على ساحة الصفارين ، التي تقع حارة اليهود عن يمينها ويسارها ، والباب يرجع فقط لعهد المنصور السعدي الذي فتحه لتسهيل نقل المواد البنائية لداخل القصر ...



6 ـ باب القائد شكير والذي انشاه السلطان المولى الحسن الاول لتسهيل اتصال دار المخزن بالمدينة



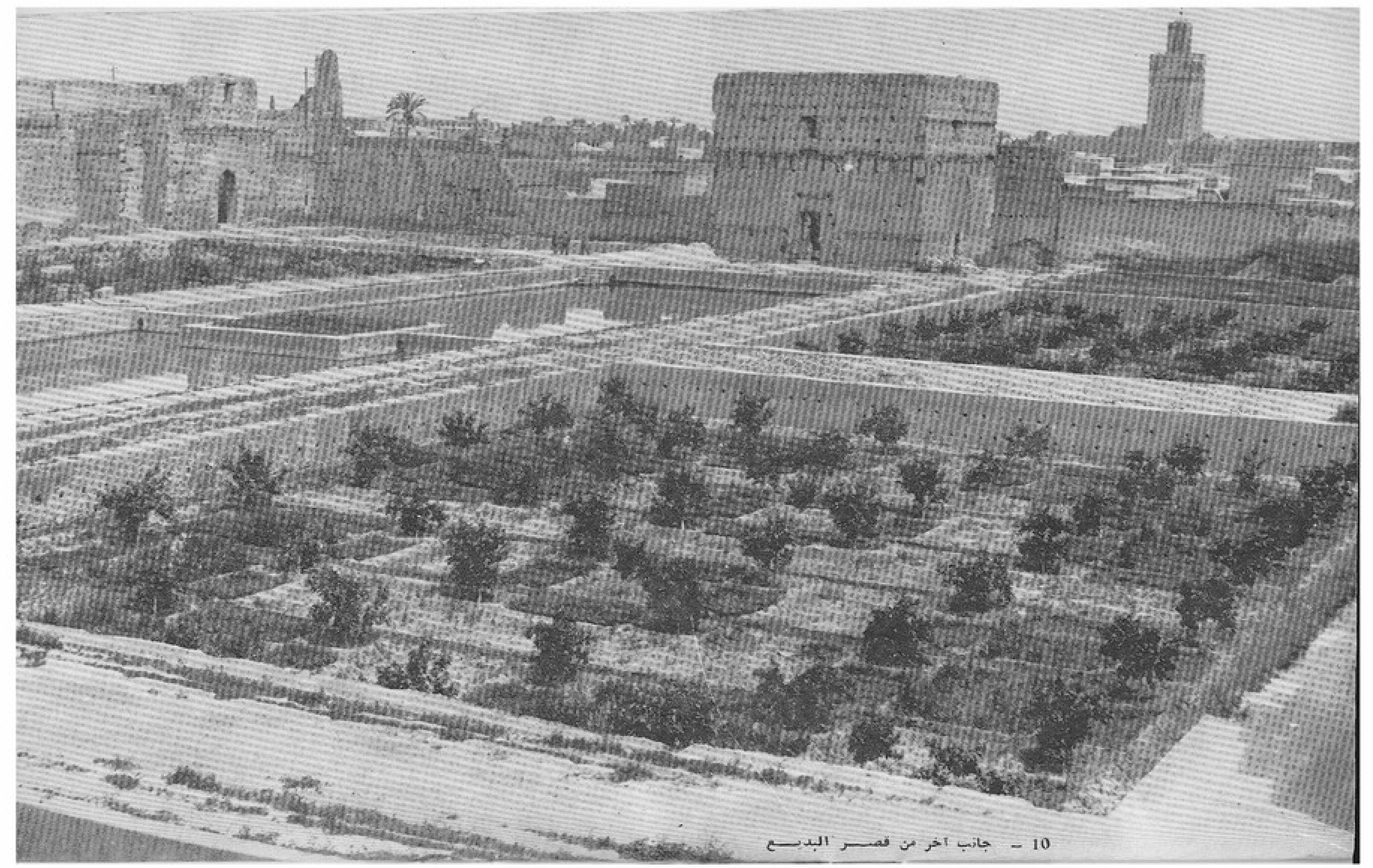
7 – البرج الذي كان بجانب الكتبية من لوحة يرجع تاريخها لعام 1803 أثبتها علي باي (قارن مع لوحة الدريان ماثام)



8 ـ جانب من أطلال قصر البديع ويلاحظ انخفاض أرضية الحدائق عن مستوى البرك



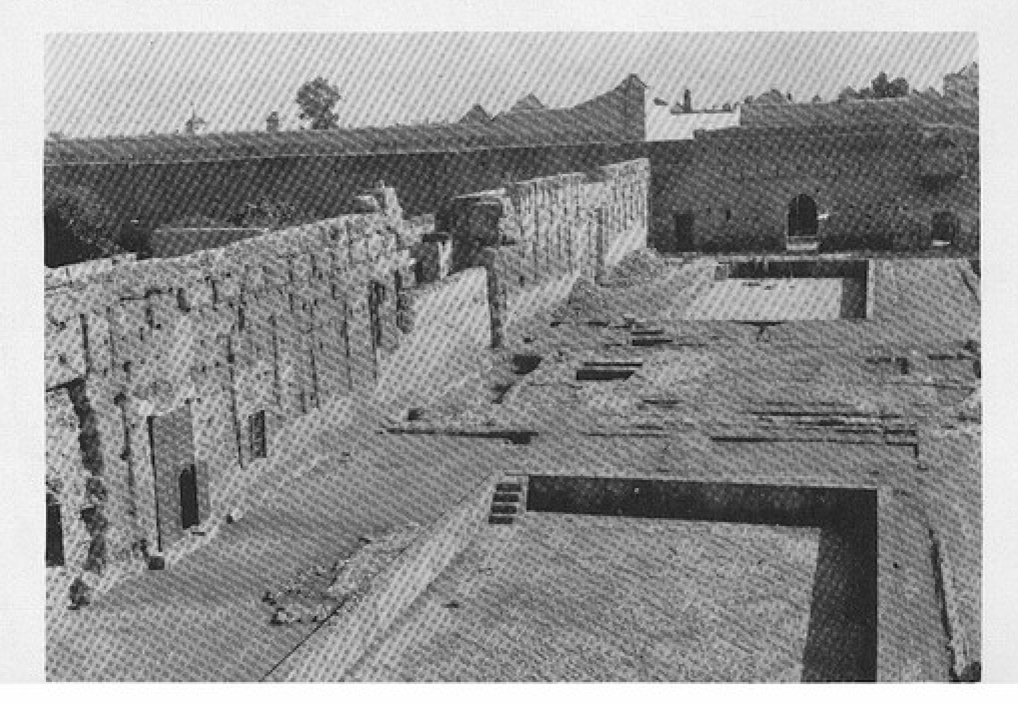
9 - جنـــاح بارز من قصـــر البديـــع

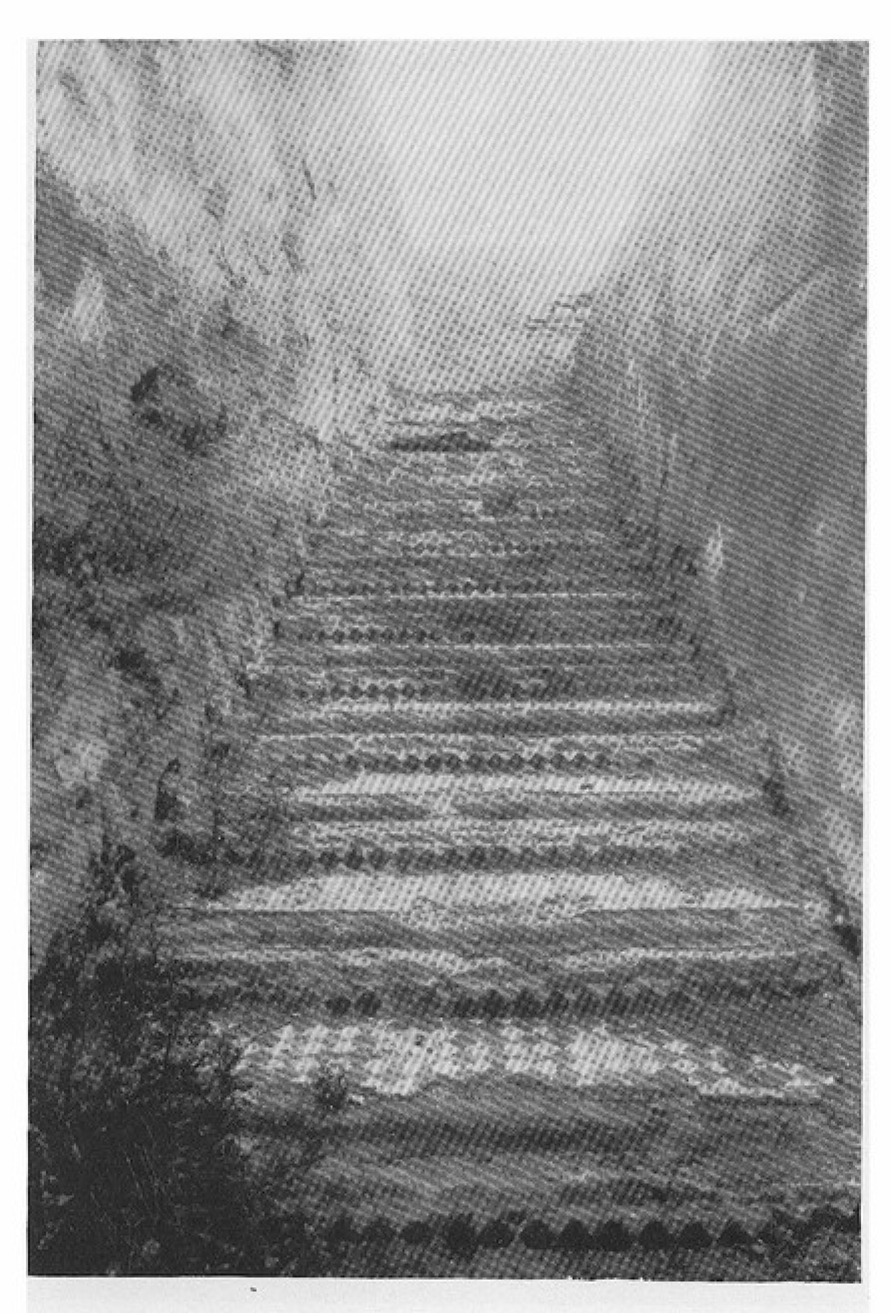


10 – جانب آخر من قصر البديع

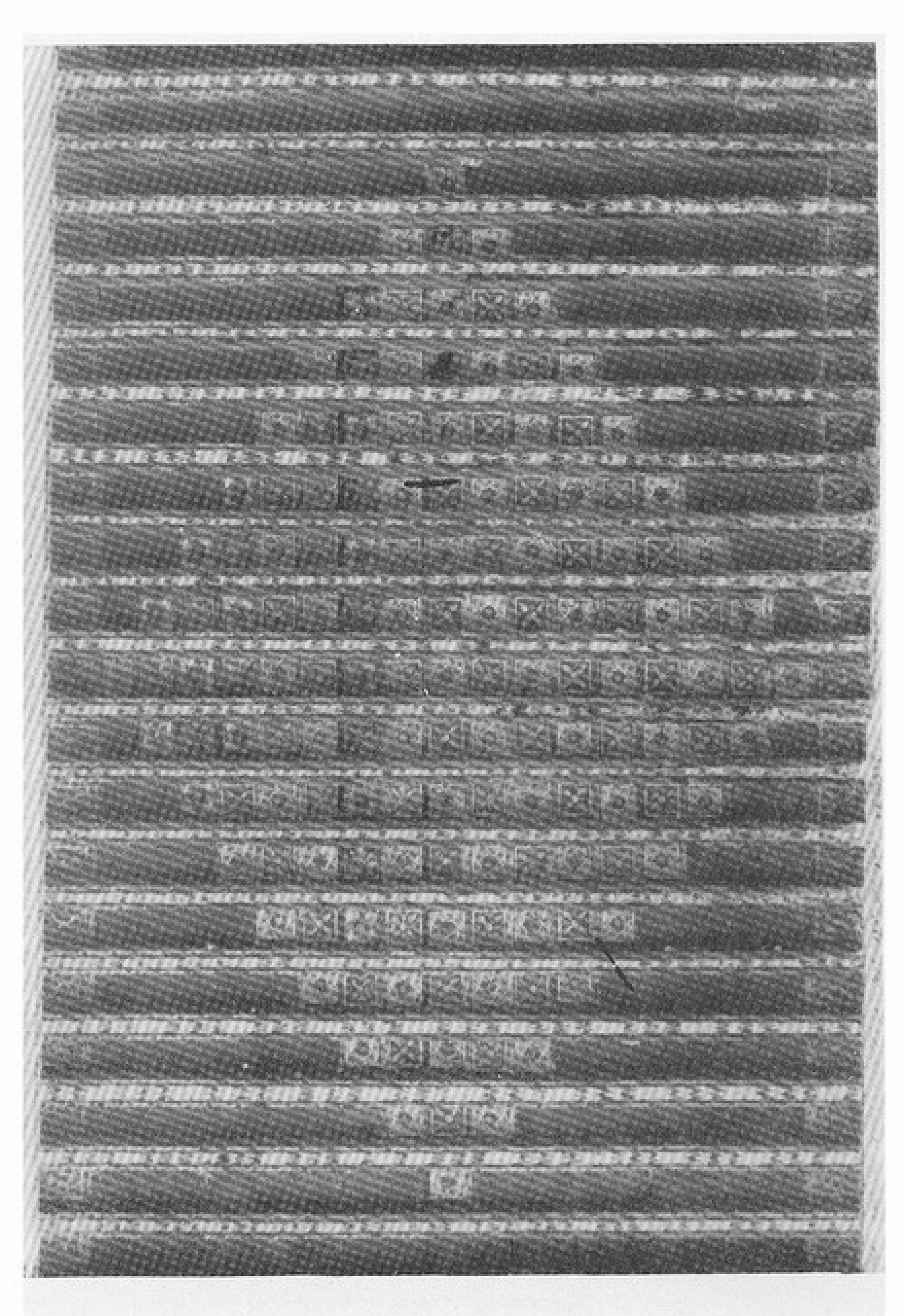
11 – جانب لاحد جدران القصر

12 – جوانب من الصهاريج المنبتة فى القصر





13 ـ بقايا من بعض الجهات التي كانت تتوفر على الدرج



14 ـ جانب من بعض سقوف الغرف في قصر البديع



15 ـ احد أبواب غرفة من غرف القصر



16 ـ ما بقي من مصراعي باب من أبواب البديـــع



17 ـ باب آخر وقد ظهر ثقب به كان أداة اتصال وتهوية

18 – بعض الاسوار المتبقية من القصر

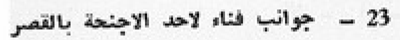
19 – جوانب اخرى من القصر



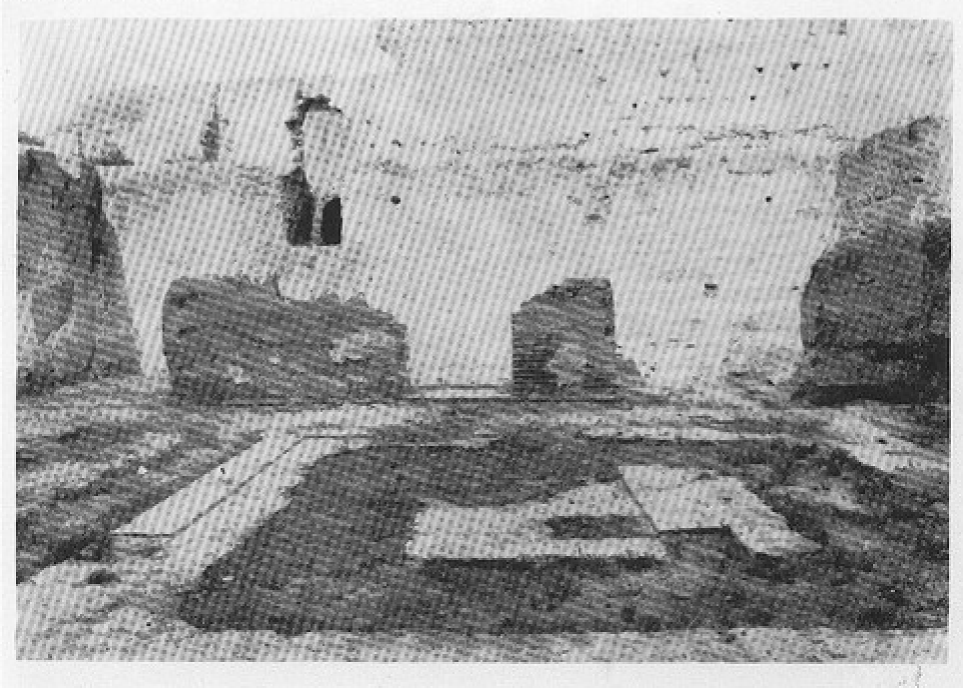
20 ـ آثار بقيـــة من الفسيفســـاء

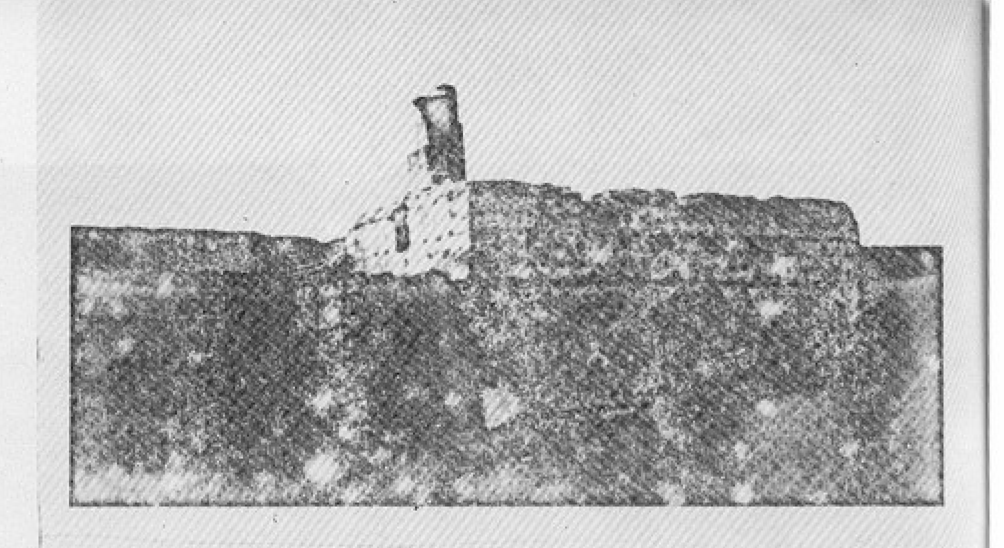
21 ـ بعض آثار البرك بما يجاورها من حدائق

22 ـ أحـد الاقبية التابعة لمرفق من المرافق

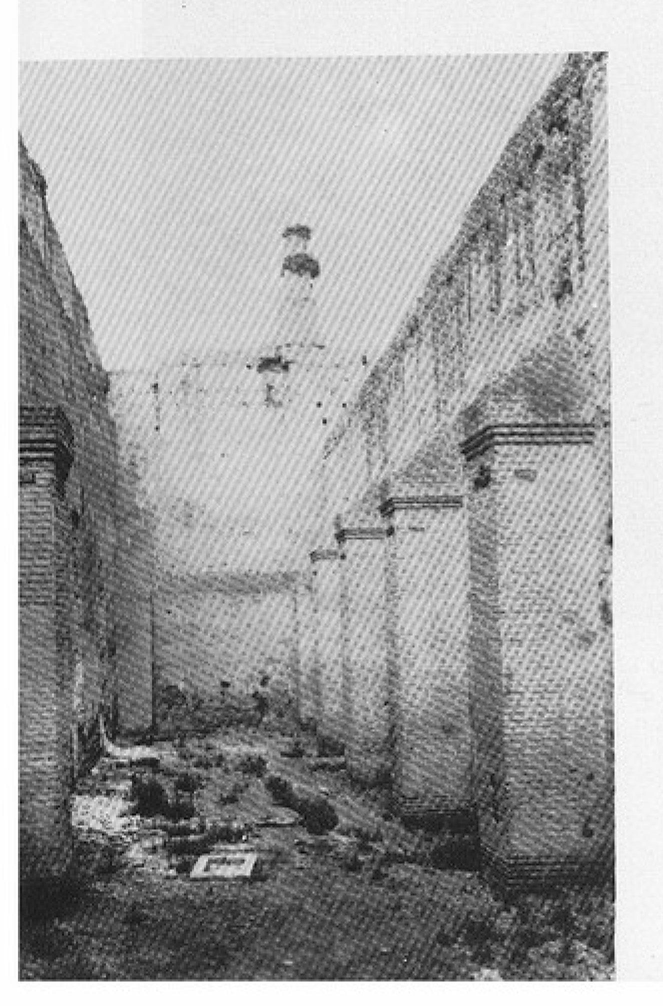


23 ـ جوانب فناء لاحد الاجنحة بالقصر



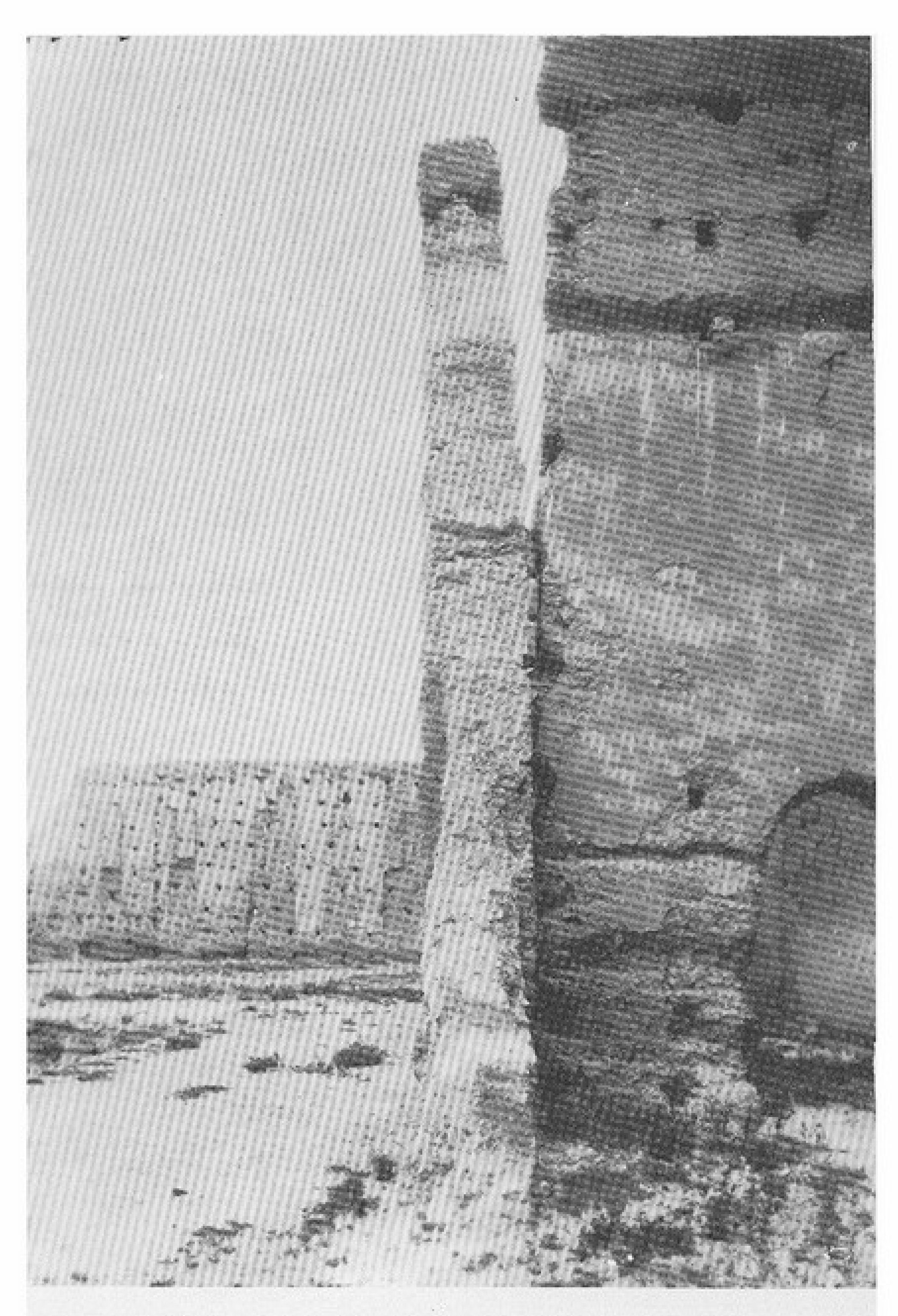


24 – جدار غرفة القصر وفيه أثر مدخنة من مداخن المعامل النقدية وكانت هناك عام 1400 مطرقة لضرب الدنانير



25 – جانب من القصر

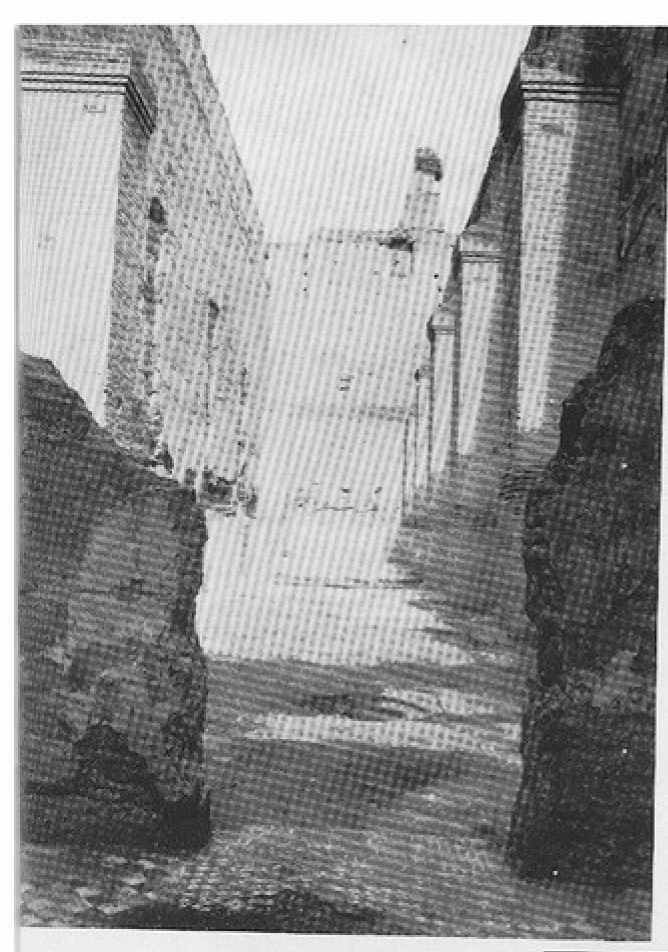
يحاذي معامل النقد



26 ـ أحد المسالك والسراديب التي كان يتوفر عليها القصر



27 – بعض ما تبقى من مرافق القصر



28 ـ بعض ممرات القصر ويرى أثر المدخنة



29 ـ بعض نوافذ القصر الحديدية

30 ـ احدى الجهات المرممـــة من القصـر



31 ـ بعض المرممات ويرى الصهريج الموالي للقبة

32 ـ جوانب مرممة من القصر

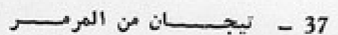


33 ـ زاوية تقوم على أعمدة الرخام

34 ـ عمــودان متعانقــان

35 ـ شكل آخر من الســواري

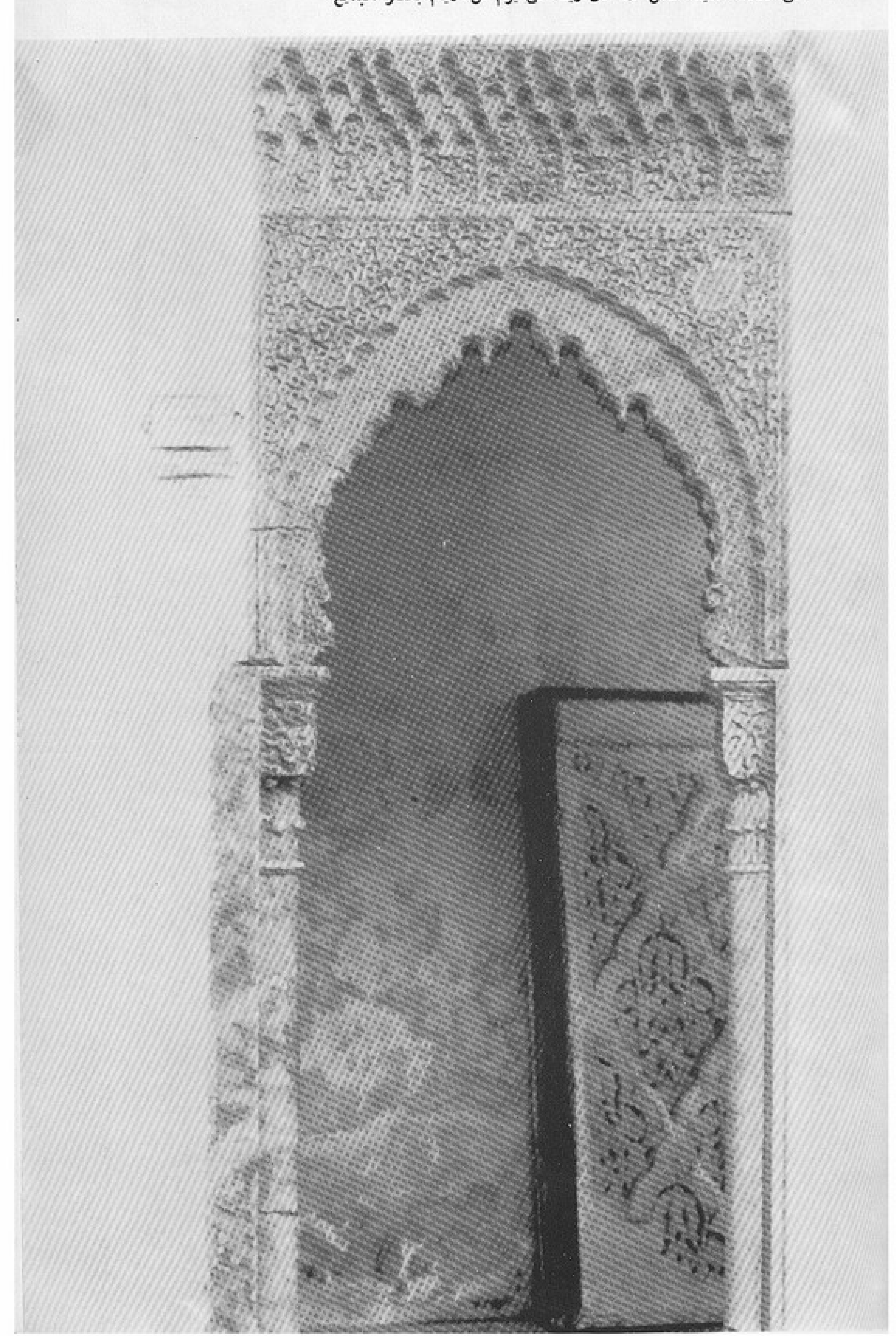
36 ـ فاصـل رخامـي

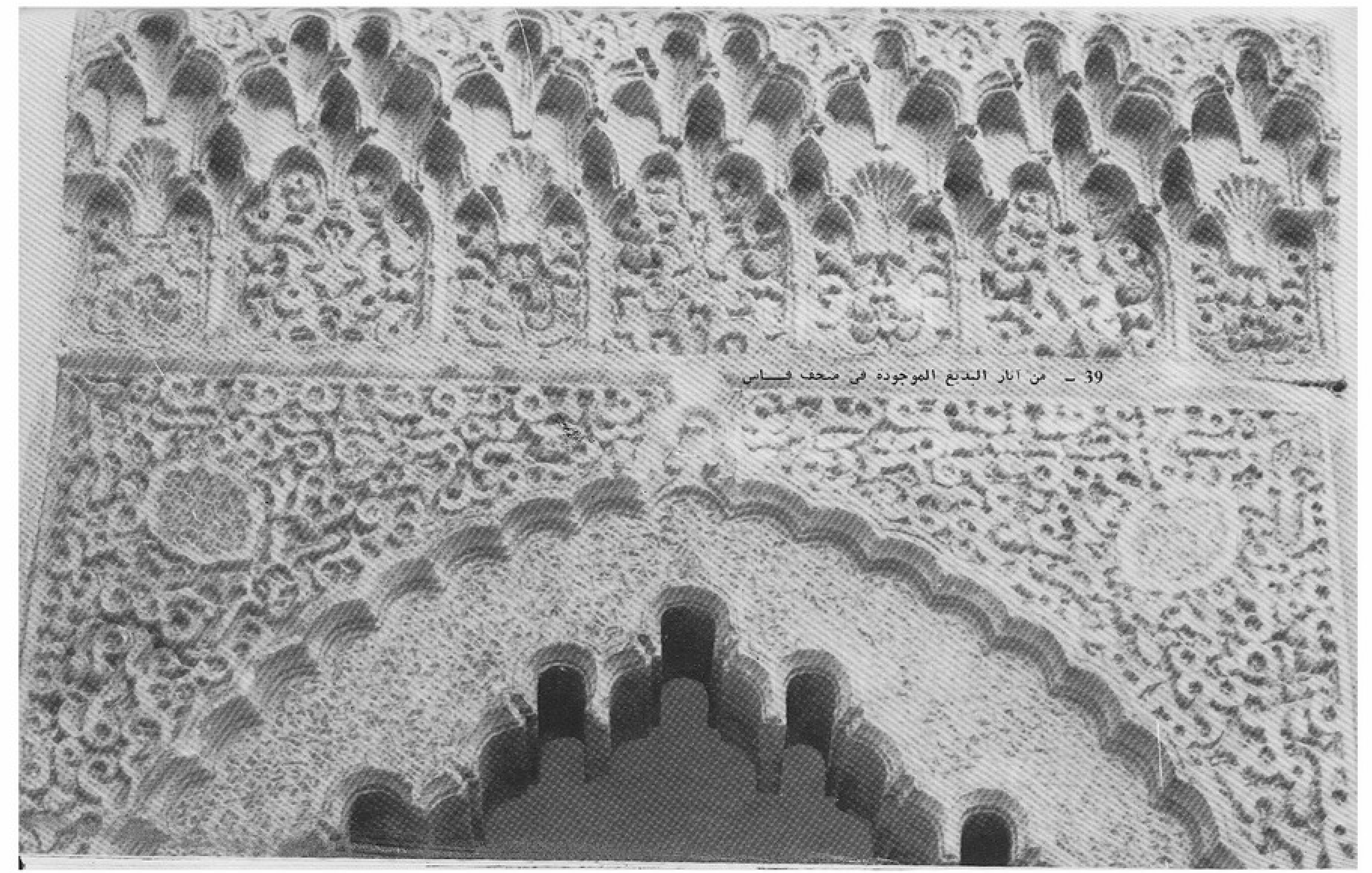


37 ـ تيجـان من المرمر

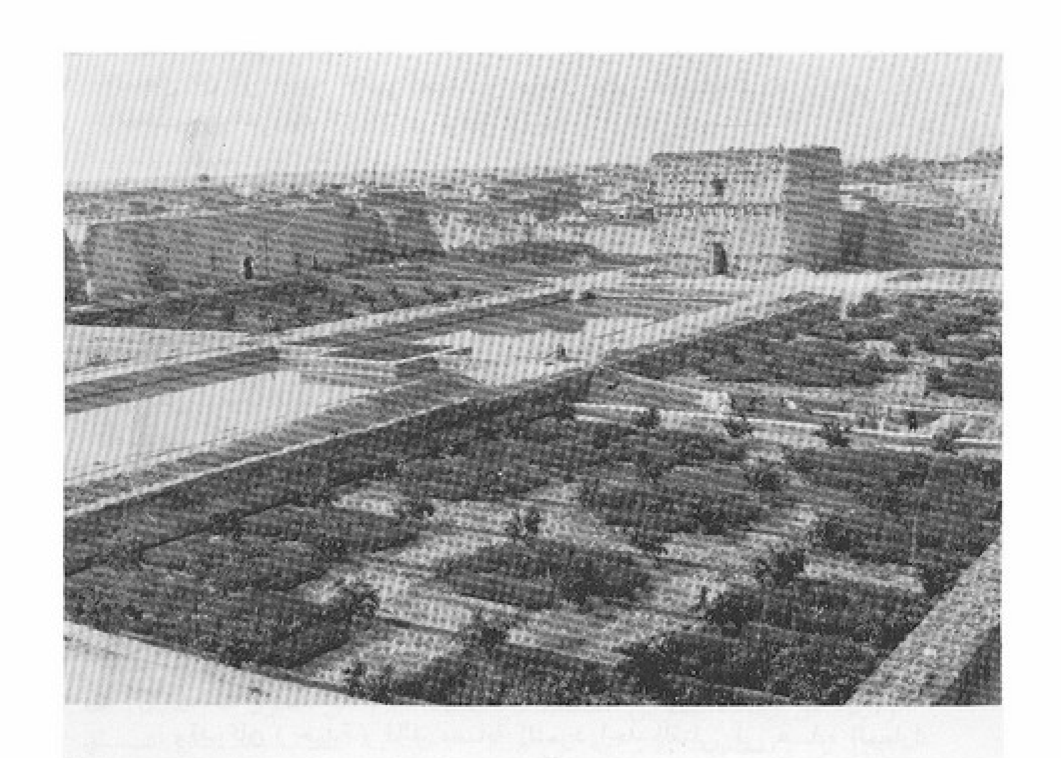


38 – يتحدثون عن توزيع تحف القصر على شتى جهات المغرب ، وهذا أحد الآثار الموجودة في متحف مدينة فاس مما كان زينة في يوم من الايام بقصر البديع





39 – من آثار البديع الموجودة في متحف فاس



40 ـ معالـــم من قصــر البديـــع

وكأن كل تلك الاصطدامات من أجل مراكش لم تكن كافية ، وهكـذا فعلى آثر مبايعة المولى اسماعيل مكان اخيه المولى الرشيد تناهـي الى العاهل ان ابن اخيه الامير أحمد بن محرز نهض للاستيـلاء على مراكش العاصمة اواخر عام 1082 = نونبر 1672 .

ولقد عانى العاهل مولاي اسماعيل من تمرد ابن محرز وسجل التاريخ عن اشتباكات مسلحة عنيفة كانت تقع فى كثير من الاحيان داخـل قصر البديع نفسـه حيث ظل القصر فى نظر الراي العام رمزا للسلطة : من تحكم فيه كانت له الكلمة ومن اخفق في احتلاله افلت السيطرة من يده . لقد قمع السلطان اسماعيل الحركة الاولى لكن ابن محرز تمكن من الفرار عن مراكش ليعود اليها عام 1085 = 1674 بعد ان تأكد عودة السلطان المولى اسماعيل الى مكناس واشتغاله ببناء قصوره هناك .

وهنا كانت الحركة الثانية من العاهل فى اتجاه مراكش حيث جرت معارك مدمرة امتدت أيضا الى داخل قصر البديع الذي تحول الى ساحـة قتال تحولات مصاريع قبابها الى مجنات وتروس ، وغرفهـا الى ثكنـات واروقتها الى خنادق ورياضها الى مقابر وصهاريجهـا الى مستنقعـات للبعوض والناموس .

وقد كان (حيدة) قائد عصابة التمرد احد القتلى فى هـذه المعارك بينما نجح ابن محرز فى الفرار من القصر عبر السراديب والدرج واتجـه نحو جنوب العاصمة ...

ومن المهم أن نسجل هنا حديثا للسلطان المولى اسماعيـل يفيض أسى وحسرة على ما تعرض له قصر البديع من تلف فى أعقـاب هـذه الحروب التي غذيت من خارج المغرب وبالذات من أتراك الجزائر .

عندما استقبل العاهل السفارة البرتغالية التي وردت عليه أواخـر جمادى الثانية 1088 = أواخر غشت 1677 برئاسة انطوان دى سيلفـا (De Silva) التمس منه السفير أن يقف على القصور الملكية « نظـرا للصيت الذي كان لها » ــ فماذا كان جواب السلطان الذي كان يفكر منـذ

البداية ــ فى استقبال السفير بخيمته الخضراء تلافيا للاستقبـــال فى القصـــر المتداعـــي .

لقد قال للسفير : « سترضى مطالبك ولو انك سوف لا تجد فى هذا القصر ما كنت تسمع عنه ، سترى كثيرا من الدمار لان رصاص المعارك المحتدمة كان يلعلع فى هذه الساحة ، ولاجل ذلك فانك ستشعر بالخيبة وأنت ترى أثر التشتت والتمزق (22) » .

وقبل أن تغادر البعثة مدينة مراكش شاهدت المناورات العسكرية بحدائق المسرة برئاسة السلطان المولى اسماعيل ، وعندما قام السفير بتوديع السلطان اعرب له هذا الاخير عن اعتذاره باستقبالـــه فى غيـــر عاصمته التي كانت ، منذ هذا التاريخ تتوفر على عدد من القصور والرياض والقباب المرتبة والمجهزة احسن تجهيز بما تحدثت عنه المصادر المغربية والاجنبية على السواء .

+ × +

لقد كان السلطان المولى اسماعيل يظن بعد هذه العمليات أن أمر ابن محرز قد انتهى سيما بعد عقد صلح مع أتراك الجزائـــر الا أن الاخبـــار الواردة من رعاياه بسوس كشفت عن تجدد قيام ابن محرز عام 1092 = 1681 بل وفضحت بالاضافة الى هذا ـ وهذا ما اغضب السلطان اشـــد الغضب ــ أن أتراك الجزائر يقدمون العون لابن محرز حيـــث ضبطـــت بعثات متبادلة بين الجهتين ومراسلات منتظمة انتهت الى عقد حلف تمون تركيا بمقتضاه عملاءها بالسلاح والجند . . . !

وقد اسندت كل هذه الاخبار بتقرير من خليفة السلطـــان بمراكش ، رفعه الى المولى اسماعيل الذي زود خليفته المذكور بتعليمات تستهدف

---

(22) une ambassade Portigaise à la cour de Marrkech au XVII Siecle FRANCE MAROC Dec. 1924 N° 97

تطمينه والتوصية بالصمود ريثما يعود من حملة شرق المغرب حيث فتح الاتراك واجهة ثانية ضده فى بني يزناسن ؟

ان الشعار الذي رفعته طلائع الدولة العلوية هو الاستقلال وعدم التبعية لاي كان بما فى ذلك تركيا وبهذا نفسر قلق أتراك الجزائر من ظهور العلويين وعملهم باستمرار على خلق المشاكل لهم بدعوى انهم يخافون على وجودهم بالجزائر من هؤلاء الشرفاء الجدد الذين كانوا - فى هذا الصدد - على خلاف السعديين المتعاونين أحيانا مع الاتراك .

وهكذا فمن رد الصاع صاعين بالشرق قصد المولى اسماعيل سنة 1094 = 1683 مدينة مراكش حيث شاهد ما آل اليه (قصر البديع) من خراب ودمار ... قبل ان يتجه نحو السوس ليدخل فى حروب ساخنة مع العصابة حيث جرح ابن محرز ، أواسط جمادى الثانية 1094 = يونيه 1683 ، فالتمس الصفح من عمه الذي أشفق على ابن أخيه ...

لكن ابن محرز عاد بعد سنتين للتمرد وبتحريض ايضا من اتراك الجزائر أنصاره السابقين الذين ظللوا كذلك أخاه الحران ، وهكذا نجد المولى اسماعيل يناهض بعنف هؤلاء المتربصين ويجهز على ابن محرز أواسط ذي القعدة 1096 = اكتوبر 1685 .

فهل انتهت مطامع المتربصين ؟ لقد تعرض شرق المغرب لاعتداء جديد وكانت للجيش المغربي هناك جولة اخرى بقيادة المولى عبد المالك انتهت بتجديد الهدنة سنة 1103 = 1692 لتخرق من جديد ويعود المولى اسماعيل لتأديب المتربصين بقسوة ، الامر الذي استدعى ارسال بعثة من اصطامبول سنة 1108 = 1697 تحمل كتاب السلطان مصطفى الذي يلتمس من العاهل الصفح عن نوابه بالجزائر ...

وقد أرضى السلطان اسماعيل طلب السلطان مصطفى ولكن الاطماع تجددت سنة 1112 = 1701 لما أن الاتراك لم يهضموا تصلب المغرب فى التمسك بالحفاظ على حدوده ، ورفض تبعيته لاي كان !

وفى خضم هذا العراك ... تستهدف مراكش ــ وفى صدرها قصر البديع ــ لمطامع جديدة ليست ببعيدة ــ على ما يبدو ــ عــن مناوشات أتراك الشرق ، فقد طمح الامير الملقب بالعالم بن السلطان اسماعيل الى السطو على العاصمة من ناحية سوس شأن ابن محــرز بالامس وهكــذا زحف من الجنوب على العاصمة فحاصرها زهاء الشهرين رمضان ، شوال 1014 = يناير ــ يبراير 1703 ، حيث عانت المدينة كثيــرا من الاهوال وهو الحادث الذي استدعى ارسال الامير زيان لتخليص مراكش التــي عاشت طيلة سنتين أيام محنة عارمة قضت على البقية الباقية من معالم مراكش وخاصة (قصر البديع) الذي عاد اطلالا متداعية وهيكلا نخــرا عملت فيه يد النهب وعبثت به معاول الاهمال والسطو الذي لا يرحــم ، فلقد اختلت دورات السقي وتعطلت جل الانابيب فيبست الحياض وذبلت الرياض ، وساءت الصيانة وانتهت العناية واشتغل النــاس بمصيرهــم وظــروف معيشتهــم ...

ولقد تأكد لدى العاهل ــ أن هذا القصر ــ امسى عديم الجدوى فهو خراب يباب ، وتعهده وتأهيله ــ على بعد عاصمة (مكناس) منه ــ أمر لا مبرر له علاوة على أنه ما انفك يغري بعض المتطلعيــن والمستشرفين ، بمغامرات انتحارية تلحق بالسكان الضرر الكبير فى الوقت الذي كان اهتمام السلطان المولى اسماعيل يتوجه بصفة ملحة الى تحريــر ما تبقــى من الثغــور المحتلــة .

لقد عرف فى تقاليد الوطنية المغربية أنها ــ حفاظــا على البــلاد ووحدتها ــ تقدم أحيانا على التضحية بمدينة بكاملها اذا كان ذلك يرضي الغيرة والشهامة القومية ... ألم نسمع عن اجهاز المغاربــة على ثغــر (غساسة) فى الشمال وقد أدركوا أن المستعمر يهدده ؟ ألم نسمع عن تخريبهم اصانطا كروز فى الجنوب وقد تشوفت اليها الاطماع ؟ وان المولى اسماعيل هو الذي كان يهدد بنسف مدينة سبتة ومحوها من الخريطة اذا لم ترجع لاصحابها الشرعيين ...

اضف الى كل هذا جانبا أكثر اهمية وأبرز خطورة فقد امسى القصر منطقة موبوءة فتاكة تضرب كل ساكن فيها بأنواع الحمى النافض التــي

تعصف بالارواح وتؤذي بالاجسام « لا يسكن احد بها ــ كما يقول ابن الحاج ــ او بدار متصلة بها أو بقصر من قصورها أو حتى تحرك بناحيتها او اقترب بسور من أسوارها الا اصابته الحمى واعترته الامراض وانتابته كل الآلام حتى أمسى المولى اسماعيل لا يكنيها الا بدار أم ملدم » اى الحمى ، وما سكنها احد من أولاده الا اصابته شتى أنواع الاصابات التي تنتقل بسرعة الى باقي اطراف المدينة وخاف السكان على نفسهم وأهلهم ، وهكذا وبدافع اولا من حفاظ على الصحة العمومية التي تاتي فى مقدمة اهتمامات الدول المتحضرة اليوم ، قرر المولى اسماعيل تهديم ما بقي من مباني البديع وطمس ما صمد من معالمه وملامحه محاسنه فصار كأن لم يكن شيئا مذكورا ، وأمسى نظمه منثورا وأصبح مرعى للمواشي والدواب ووكرا للقنص ومقرا للبوم معدودا فى جملة الخراب (23) .

انه بكل ذلك نفسر ما أجمله اليفرني عند تعليل امر المولى اسماعيل القاضي بهدم بقايا القصر سنة 1119 هـ ــ 1707 م حيث قال كان ذلك « لموجب يطول شرحه » .

وليس صحيحا ما نقله المؤرخ الرباطي الضعيف أن المولى اسماعيل لما هدم البديع حول مواده لتشييد داره بمكناس فقد بنيت تلك القصور ــ على ما أسلفنا ــ قبل بربع قرن تقريبا وهي القصور التي قال عنها المؤرخون : « ان قصر البديع لا يضاهي واحدا من قصورها وان روض المسرة لا يوازي بستانا من أحد بساتينها (24) . . . »

---

(23) يذكر ابن الحاج صاحب الدر المنتخب ان بعض الناس بالرغم من الباعث الذي دفع الى الاستفباء عن تلك الاطلال توجه بالعتاب لصنيع العاهل ، لكن بعضا آخر كانوا يرون راي المولى اسماعيل ، وهكذا قال بعض الكتاب معتذرا عن هدفه مذكرا بناحية أخرى بعيدة المرمى :

ما هد اسماعيل شمس الورى * من البديع الرائقات القباب
وانما هدها من بنى * بالحجر المغصوب معه التراب
أما سمعتم قول من مضى * الحجر المغصوب آس الخراب!!

(24) الاستقصا : 7 ، 48 ــ 54 ــ 102 .

واذا كنا لا نستبعد امر المولى اسماعيل بنقل بعض السواري مـــن مراكش الى مكناس أثناء حلوله بالبديع ومعاينته للتلف الذي حل بالقصر مما أشرنا اليه آنفا فاننا نرفض ـ وتعضدنا الوثائق ـ ان يكون بناء قصوره بمكناس كان يتوقف على تصفية قصر البديع اى ان يكون المولى اسماعيل انتظر سبعا وثلاثين سنة لتكون له قصور !! ودون أن يلتفت الى أطـــلال مدينة شالا ألتي تحدثت عنها رسائل السفير ولد عائشة الى الوزيريـــن الفرنسيين : بونتشارطران (Pontchar Train) وموربـــا (Maurepas) تحدث عن نقلها الى مكناس بتاريخ 30 ربيع الاول 1111 = 25 شتنبـــر 1699 (25) بل وخرائب قصر فرعون ، (volubilis) الذي يوجد على مقربة منه ، وحتى بعد امره بهدم القصر نلاحظ ان المواد المنقولة كانت من القلة بحيث استطاعت التقارير الدبلوماسية الاجنبية ان تتبعها وتضبط تاريخها مما لا يدع مجالا للشك بأن الذين عاثوا فى قصر البديع سطـــوا ونهبا وتوزيعا قوم لم تعرف هويتهم وانهم على الراجح ، ممن يستغلـــون ظروف الاضطراب والفتن ، على ان بعض المواد ضبط استعمالها فى بعض المزارات المنشأة بعد عمليات الهـــدم ...

وهكذا نقرأ فى رواية للقنصل الفرنسي بيريليي (Périllié) بتاريخ 15 يوليه 1684 . عن « حمل اثنتى عشرة سارية رخام من اسفي على بعض المراكب ، كما نقرأ بتاريخ 22 نونبر 1695 عن قيام القنصـــل الفرنسي بيير ايسطيل (Estelle) بالتفرج فى سلا على عربات تجرها الثيران محملة بالرخام القادم من مراكش ...

ان هذا كله يؤكد أن الاعراض عن البديع لم يكن ناشئا عن شعـــور بالحقد والغيرة ممن كانوا على كرسي الحكم والا فكيف نفسر المقـــام فى البديع واستقبال السفراء فيه كما يؤكد ان بناء القصور بمكناس لم يكـــن متوقفا على ما يلتقط من البديع ، واضافة الى هــــذا وذاك فان القصـــر استهدف ـ كما فصلناه ـ منذ وفاة المنصور السعدي لهزات ورجـــات وظروف وصروف جعلته بعد زهاء القرن عبئا على الدولة محكوما عليـــه

(25) دوكاستري س : 2 ، م 5 ، ص 406 .

بعدم الفائدة ... وهكذا فان المولى اسماعيل بعيد عن ان يتحمل مسؤولية مبنى عملت الاحداث الداخلية والخارجية على انهياره والحاق الضرر به وجعله هيكلا خاليا من الروح بل وصيرورته منطقة وباء ماحق فى وقت لم تكن فيه وسائل التعقيم والتطهير الصحي متوفرة .

ولعل مما يضفي الضوء على ما أسلفناه من التبعة الملقاة على كاهل « الذين » كانوا يوالون سطوهم على مواد القصر دون علم السلطـــة ، ان اولئك تجاوزوا البديع الى سائر اطراف القصبة حتى وجدنا ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل يضطر لنصب الخيام فى القصبـــة للمقام بها أثناء زياراته الاولى لعاصمة الجنوب !!

ومع أن ما حاق بالقصر من أهوال أتى على جل معالمه ومع أن سائر ما فيه تعطل فان كل ذلك لم يستطع ان ينتزع من تلك الجدران القائمة ، ومن تلك الصهاريج الكالحة ، ومن تلك الساحات الشاحبة ، لم يستطع ان ينال من عظمة المبنى بالرغم من الصمت الرهيب الذي يخيم على أركانه ودروبـــه .

وشعورا من الحكومة المغربية بذلك الماضي المجيد قامت مصلحة الآثار بتخطيط من وزارة الدولة للشؤون الثقافية ، وفى اطار التصميمات المعمارية بتخصيص مبالغ ضخمة لترميم بعض القاعات التي صمدت فى مبانـــي البديـــع .

وهكذا يجري العمل على قدم وساق من اجل اعداد قاعة من القصر تضم سائر ما عثر عليه ويعثر عليه مما له صلة بالبديع من قطع رخامية او خشبية او خزفية او غير ذلك ، ثم كل ما يمس بمنشئـــات السعدييـــن المعمارية حتى يكون الزائر لتلك القبة فكرة مدققة عن طموح الفن على ذلك العهد ومواكبته بل وتفوقه على الفنون المعاصرة ، كما ان الاستعدادات جارية فى الوقت نفسه لتهيىء قبة ثانية تخصص جنباتها لعنصر ثان من مظاهر عظمة السعديين ، وهو العنصر المتعلق بمعاصر السكـــر التـــي اشتهرت بها (تارودانت) (المحمدية) القديمة ونواحيها على ذلك العهد ،

وان الذين يتتبعون تاريخ الممالك الاروبية آنذاك وخاصة انجلترا يعرفون أصطلاح « ديبلوماسية السكر » ! الذي دأبت التقارير على استعماله .

ستضم القاعة الثانية جل تلك الادوات والاحواض والقوالب المستعملة فى تلك المصافي التي اكسبت المغرب ازدهارا ورخاء يترجم عنه وصف المنصور بكلمة الذهبي ...

على ان هناك جهة أخرى تعني بالتعريف بالبديع ، تلك هي وزارة السياحة التي تنظم فى رحاب البديع مهرجانا ربيع كل سنة للفنون الشعبية تشاهده مختلف الدول من سائر جهات العالم ، ولا يهدف ذلك المهرجان فقط لتمضية الوقت والتسلية بقدر ما يهدف الى التعريف بضروب فى الفن ، واشكال من التعبير كانت معروفة بالمغرب منذ القرون الماضية فهنا الوان من الرقص المعبر ، وهنا صور عن المناورات التي كانت تعد من اجل مقارعة المهاجرين والمغيرين ، وهناك ناخذ فكرة عن المدرسة المغربية التي تعد المرأة لتكون فى ساعد الرجل ، وتعد الرجل ليكون درعا للوطن ...



وبعد فلقد كان القصد من هذه السطور تجديد الفات النظر الى تلك المعلمة التي شدت الناس على اختلاف مشاربهم الى جمالها وعظمتها والتي قضت عليها الحروب المتوالية تلك المعلمة التي نعتبر الحديث عنها والاهتمام بها والانصاف لها من باب البرور بالتاريخ الحضاري للمغرب .

د. عبد الهادي التازي

النص الكامل للقسم الخاص بقصر البديع

من كتاب (مناهل الصفا) للمؤرخ الفشتالـــي :

« ... فمن شرف آثاره الجليلة الضخمة التي اخمل بها ، ايده الله تعالى ، ذكر مصانع قومه بني العباس ببغداد وبني مروان بالشام وآثـــار بني عبيد التي منها القاهرة ، وسائر ما يعزى الى اولى السلطان الاكبر من القياصرة والاكاسرة واهل الدول الاولى والآخرة : قصره الشريف العظيم الخطر العديم الند والمثل . الضخم العمل ، الذي هو المثل المضروب فى الارض عظمة وفخامة وضخامة وجلالة واحتفالا وتفننا وتأنقا ، ولا بد عند الاستفتاح بذكر هذا المصنع العظيم الشريف من مقدمة تكون هي النتيجة فى اقامة المعذرة لي عما يستشعر من القصور من يقف على عين هـــذا الاثر الشريف الجليل المنيف فيرى ما ابصر اجل وأعظم وأفخر وابهـــر واخطر وارحب وأوسع وآنق وأرفع مما سمع ، فأقول ان الله تعالـــى لا يواخذ العبد الا بما يكون من العمل فى وسعه وطاقته . والاحاطة بأوصاف هذا الاثر العظيم والآية الخارقة لا جرم من قبيل المحال والتكليف بما لا يطاق ، ولكني اصف من الفلك بعضه واتقلد من العمل فرضه واتجنـــب البحـــر وخوضـــه فأقول :

لقد وجدت مكان القول ذا سعـــة فان وجدت لسانا قائلا فقـــــل

فيا لله وللعجائب ، وللدنيا المضروبة فى ارض المغارب ، والخوارق التي لم يخلق مثلها فى البلاد بهذا العصر وفى الاعصر الذواهب ، فماذا اقول وقد رأيت الامر جليلا وماذا اصف وقد حملني العجز عن الوصف عبئـــا ثقيـــلا .

أيروم اللسان وصفا لشـــيء ما له فى الدنيا مثال وشبه

وهذا المصنع العظيم ينبغي ان أنبه على ما لمولانا أمير المؤمنين ايده الله من النية الصالحة فى تشييده ، وهو ان موالينا الخلفاء من سلفـــه

الكريم رضوان الله عليهم وان كانوا قد خطوا المدن ووطدوا القصور وشيدوا الأواوين وأعلوا الصروح وبنوا المساجد ورفعوا المئاذن وأجروا الانهار وروضوا الرياض واحدقوا الحدائق ، واترعوا البرك واغترسوا البساتين المفوفة ، فما قنع مولانا أمير المؤمنين ايده الله ، لطموح همته الشريفة ، بالغاية التي وقفت عندها هممهم رضوان الله عليهم في كل شيء . سمعت منه ايده الله مرارا اذا جرى ذكر التعجب من عظيم اثاره المنيفة وضخامتها ومجاوزة الغاية في فخامتها واحتفالها ، والمبالغة بما لا غايـــة بعده في تأنقها ولطف وشيها وتنميقها واستعظام الحاضرين لما بلغ الاتفاق عليها ، يقول : ما بعثني على ذلك الا اني اذا نظرت الى آثار سلفنا الكريم ، اجـــد آثار الموحدين ما زالت تنازعها فضل تنجيز وضخامة واحتفال اربى عليها، وآثار بني مرين تجاذبها رداء التأنق وربما شفت في تنميق الحلة ، وبديع الطراز ، فأبيت لاهل بيت النبوءة ان يكون الفضل والشفوف لآثار مـــن دونهم من الدول على آثارهم ، فلم أرض الا بما يعفي على آثار الدولتين . قلت : فلو قال ايده الله على آثار الملتين لم يبعد عن الحق لقيام الشاهد على صحة دعواه ، وهذا المعيار بين الدول في الآثار انما يرجع الى القصور لا الى مطلق الاثار والا فالمحمدية (1) التي من مشيدات مولانا الامـــام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد السوس وأم القرى والامصار وملاك باب السودان ذات القصور المشيدة والاواوين الموطدة والرياض المفوفـــة والانهار المطردة والمساجد المزخرفة والمآذن المقرطة بلآلىء النجـــوم المشنفة ، الى **معاصر السكر** الجاثمة حواليها جثوم اهرام مصر ، يتقاصر عن تشييدها أولو القوة من عاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، مـــا شئت من توطيد وتشييد وبرك مستبحرة وجفان كالجوابي وقدور راسيات وحركات هندسية ولوالب فلسفية ومقاييس حسية ، وانهار تتسنم لاجراء رأحيتها العظيمة الاخشاب ذرى الاســـوار الممتـــدة الاعـــراف الـــى عنان السماء بتدبير وفلسفة تحار فيها حكماء يونان وجنان سليمان ، لا يطير تحت جناحها البلد الجديد من فاس الذي هو عند بني مرين مشيد

---

(1) هذا استطراد عرف فيه بمدينة تارودانت المسماة آنذاك بالمحمدية وفضلها على فاس ومراكش . ع. التازي : مدينـة المحمدية الحديثـة ومدينـة المحمديـة القديمـة . دعـوة الحـق يوليـه 1960 .

به آية خارقة ، ولا قصبة مراكش التي هي عند الموحدين من قبيل الاعجاب ، بل اذا ذكرت المحمدية لف كل منهما رأسه استحياء . وحسبي شهادة العيان (رجع) وبنى العمل ايده الله فى اختطاط هذا المصنع العظيم على هذه النية الصالحة وارتاد له الجانب الشرقي من قصوره الكريمة لاتساع مساحته فاعتام له فى الطوالع النجومية ما رضى أهل الرصد اثره وتحينوا اوانه . فكان مبدأ الشروع فى تأسيسه فى شوال خامس الاشهر من خلافته السعيدة من عام ستة وثمانين (1) واتصل العمل الى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم تتخللها فترة ، وحشد به الصناع وأرباب الحكمة من كل ارض حتى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع فيه كل يوم من ارباب الصناع ومهرة الحكمة وجهابذة البناء واولي المعرفة والكفاية فى التنميق والتشييد ومن سائر الفعلة واسارى الدولة خلق عظيم ، يسمع لهم ولما يتألف برحاب القصر وساحته من السويقة(2) ... لشراء الخدمة والفعلة الفواكه المختلفة والالبان واللحمان ، دوى كدوى الاسواق الهائلة ، ويختص هذا القصر الشريف من جميل الالقاب بالبديع ، لاجرم طابق الاسم المسمى ، لاحتوائه على كل نوع من انواع البدائع وغرائب العجائب ، يشرع اليه من الايوان فى مدخل عظيم عريض المسلك ، تسافر فيه الخطى وتكل القوى ، بعيد الشقة يسبح منه العابر فى بحر المديد الطويل ، لا تحصى لياته وتعاريجه بين المدخل المفضى من الباب الاقصى لهذا القصر الكريم ، وهو الذي كمل اليوم من المدخل الطويل المديد تربيعه، وتم توطيده وتنميقه، عنوان المحاسن وترجمان العجائب تتعدد فيه الخطى ويستلب الحجى ، ويسحر بمحاسنه العيون والالباب ، **واذا افضيت منه الى الدار الكبرى** مثوى الامام نفسه ومطلع شمسه والفلك الذي تبدو منه طوالع سعده فهنالك يخرس اللسان ، وتحار الاذهان ويملك الدهش الجنان ، ويجف القلم ويرتعش البنان . وهذه الدار أم العجائب وديوان الغرائب أخذ جدارها المنحوت من الفلك المحيط جفوة وعظما جوانب البسيط الافيح ، بديعة الشكل متناسقة الاوضاع متقابلة

---

(1) يعني وتسعمائة

(2) بياض فى المخطوط وقد ملاه الاستاذ كنون فى مخطوطته بكلمة المعدة ، وافترض السويقة عوض السوق

المحارب والتماثيل تزخر من بركها **الخمس** بحار طافية العباب ، قد مثلت فى رؤوسها دوائر المرمر المختلفة الالوان العظيمة الاجرام ترقص فيها المياه الغزيرة على ايقاع طيور الادواح المفوفة ، ويخترق صحنها الفسيح الارجاء من هذه البرك البركة العظيمة المرقومة الارجاء بنجوم الفواقع الطافية من اضطراب احشائها ، وقد استدارت بوسط سمائها هالة الباج (1) الاعظم المتلع الجيد السلافي الذوائب والاعراب ، قد ظلت هامة جيد الاعلى بالقلنسوة المنمقة من منحوت المرمر بتماثيل مختلفة من انواع القثاء وعراجين الاعناب والبطيخ والدباء ، تنبع من خلالها ميازيب المياه الدافقة فترشق بسهامها المفضفضة نحور الواردين وتنعكس سموتها من الفلك الى الارض فتنساب خلال المحنشة المنحوتة من المرمرات الاراقم ، وعلى ضفة هذه البركة سماطان حافلان من أدواح النارنج الباسق الافنان تروق العين منه كل عذراء سندسية الغابة جعدة الوفرة ، تتوسم محاسنها من البركة فى مرآة بديعة الصقل ، ونهرها المتدافع مخضر العذار بمماشي الزليج المنمنم الوشى المسهم البرد بالجداول المرمرية . تنتهي قباب هذه الدار الى **عشرين قبة** ، والاربع المتقابلة طولا وعرضا توله العقل وتبهر الناظر وتسبح العين منها فى بحار الحيرة جفاء وعظمة ، وهياكل ماثلة تحتقر اهرام مصر ، وتلف العالم فى ملاءتها سعة ورحبا وتسخر بعصور اهل القرون الاولى نقشا وزخرفا وتمويها وصبغا ، متنوعة الاغراض متشعبة الاوضاع من محاريب وتماثيل ومقاصير وخزائن **ومساجد** الصلوات والمتعبدات ومجالس الخلوات والجلوات ، تختص القبة الشرقية منها بسقف الزجاج الملون فسمت (هذه القبة بالزجاجيا) (2) بالاضافة اليه ، منظوم الالواح يفرج السقف المعتام لذلك من شجر الخلاف المموه بالابريز الفائض الشعاع ، واذا رمقت عين الشمس بمحاسن هذا السقف الزجاجي من خلال الكرى وفاضت اشعتها الملونة على الجدران فصبغتها ، رأيت نعيما وملكا كبيرا . كيفية تستخف الاطواد الراسية انفعالا وتأثرا ، قد دحيت ارضها بالرخام الصقيل الفضي الملاءة ترقص وسطها فوارة خضراء

---

(1) القصد الى الباز يعني الحوض فى الاصطلاح المغربي

(2) هنا بياض ملىء لدى كنون بهذه العبارة بين الهلالين مع استصوابه الزجاجية

زمردية اديم (1) ، ويكنف ابوابها الثلاثة برطال عريض الساحة ضخم العمل مثنى الصفوف بأعمدة المرمر تطاول جذوع النخل اعناقا وقوائم الجبال غلظا (على متين السواري (2)) النواعم الابدال صفاء الوان ورقة ابشار ، قد انعطفت عليها أهلة **الخراسن** الخشبية الجامعة من غلظ الاجرام ولطف التأنق ، قد تنوع مسقفها الى **سبع قباب** تفننت فيها الصنائع المقربسة الخشبية والمسطحة وتلومت بها آلات النقش تعميقا وتكريشا ، تحت كل قبة من هذه السقف فوارة قوراء كأنما قدت من اديم الدرتميس رقصـــا بالمياه ، وتزهو هذه القبة ببهوها المتبرج الزينة البديـــع النظـــرة الى المشتهي الروض المرع المنظوم بالبديع شرقا ، يشرع اليه من البهو على باب يسحر الطرف حسنا ولطفا وتدبيجا انعطفت قوساه المنحوتتان من لباب المرمر انعطاف الحاجبين على قائمة من المرمر مسكية اللون ابنوسية الفلالة ابقى النحت فى حلق القوسين منه وفى اسارير جبهته الناتئة تجاه الروض من البدائع المقربسة اثرا (يزهو على (2) مرور) الجديدين ، بين يديه شطرنجية كأنما نسجتهـــا العناكـــب لطفـــا وادماجـــا ، ثم الى **بركة النهر** ذات الباج المتلع الجيد التي تسافر فيها العين غربا الى القبة الخمسينية ، وهذه القبة العظمى الشهيرة بالخمسينية قيـــد البصـــر وانموذج الكمال وعنوان سعة الهمم مثلت بين القباب مثول عقيلة القصر المتربعة على كرسي الجمال والكمال وضخامة الجلال أبرزهـــا الاتقـــان وحيدة فى مصانع الدنيا جفاء ووضعا وتأنقا وتفننا وزخرفا تقع العين من عظيم هيكلها البارز على ما يوجب البهت ويحير الفكر ، ذات الوفر العظيم، الضخم العمل ، الخشبي التأليف (3) ... **المديد الجناح** على جوانـــب الارض ، واملت بين العادة أجرام الخشب الارزي المعتام فى المقاطـــع ، المنشود فى أغيال المنابت ، فاضلا أعجاز النخل طولا وسباطة ، وقـــام بجانبيه عند مركز أجرامه فى الرفرف الهائل المحيـــط بالدار عقابـــان عظيمان ، ترى النسر فرقا منهما بين طائر وراقم ، وتبز هـــذه القبـــة

---

(1) لعـــل الاصـــل الاديـــم
(2) زيـــادة مـــن نسخـــة
(3) بيـــاض بالاصـــل فى كل من المخطوطتيـــن

بسقفها البالغ اقصى مبالغ الجفوة والضخامة ، يملك الدهش الناظر اليه كأنما يرمي بطرفه الى قبة الفلك استدارة ورحبا وتجويفا وسموا مكفوا على الجدار بغير عمد ، سوى قدرة الذي يمسك السماء أن تقع على الارض ، مظللا بالبراشيل الضخمة التي غادرت القحط فى المنابت الاشبه والمعادن الحديدية . ولقد بلغت المنارة التي عرج بها المعلمون الى السماء وتسنموا ذروتها حتى توصلوا الى تأليف أجزاء هذا السقف الضخم الى سبعمائـة حمل ، وهو كل زوج من افراد الاخشاب الأرزية الضخمة التي لا يستقل معها المطايا البدن الا عن رغاء يبكي الصخر . ومن الحديـد المؤلـف لاجرامها مائة قنطار ، واعتبر هذا فى السقف الذي استفرغ هذا الوسع فى السلم اليه ، ثم فى البراشيل التي أكنته والتقمتـه فى جوفهـا . فسبحان من تطاول قدرته . وأخذ الاحكام مقعر هذا السقف ، فولد فيه أمهات الصنائع وأصول الخواتم من العمل المدعو **بمنقار وميجم** (1) ؟ توليدا يستوقف الناظر اعتبارا واستبصارا وتعجبا ، وانساح من تحته مذيـل الجفت (2) . حتى عام فى بحر من الجص طامى العباب بالعجائب ، وهناك تخارق الاحكام وتماجنت النقوش ، وتفننت الصنائع تدبيجا وتكريشـا وتحرشفا وكتابة تركب حروفها غصون التشجيرات وتتخللها قصب الورق اللطيف . ويتصل بشط هذا البحر من اسفل نطاق المرمر الفضي الذي توشحت به القبة واستدار على خصرها مدبجا **بالشعر فى وصف البنـاء** واضح الكتابة بمرمر سجي اللون قد بين فيه الخيط الابيض من الخيـط الاسود ، وساح عنه الزليج البراق الملون ، تترقرق مياه صبغه صفاء ورقة ديباجة ، قدانتظمت فيه الأرز بفرش الارض لفا واحدا مشجرا بالقضيب اللدن المعاطف ، تصعيدا وتصويبا وتحريفا وبسطا وتركيبا ، يشق القبة بركتان انيقتان بين فوارات لجينية وتماثيل مذهبة ومفضضة ما بيـن **أسود فاغرة** الافواه تقذف بأغصان اللجين انسكابا وحيات رقش رائقـة الصفير ، متلمظة الالسن بسلاسل الفضة من سكيب الماء ، وقد توسط فى **البرزخ** بين البركتين فوارة رحيبة القطر غريبة الشكل ، كأنما عجنت

---

(1) منقار وميجم أداتان يستعملهما النجار فى بعض الخدمات الدقيقة ، والمنقار (Mrleline) **مطرقة يدها من عود ونهايتها من معدن حاد . والميجم** (Maillet) **ما يزال معروفـا كذلك وهو مطرقة كلها من خشب (يدها ونهايتها) .**

(2) بياض فى الاصل ويظهر أن الجفت تحريف لكلمة جصب (Jaspe) **حجر كريم**

من طينة المسك يعلو جوهرها فرقد ؟ ومدارج النخل ؟ وبهو هذه القبة الرحب الفناء ذهب بمحاسن البناء تمويها وزخرفا تلقى بصدره رؤوس الطير للاسفل نواطق بلسانها الاطراء والاغياء ، وأبوابها المقربسة المموهة ومصارعها الضخمة تذكر سد ياجوج وماجوج جفوة وعظما ، بين يدي كل باب فوارة ضخمة متباعدة القطر كأنما هي سجنجل تتوسم فيه القبة ... (1) نقوشها ، ومثل امامها البرطال العريض الساحة المتعدد القسى ، البعيد الامد ، الضخم العمد مثنى الصفوف من جذوعها المرمرية المائلة بالجبال المنحوتة مدحو الارض بالرخام الصقيل . كأنه صرح ممرد من قوارير ، بين يديها مسيل الوادي المتدافع يفور فى الارض من تحتها ومعبرة على جسر من المرمر متعدد القسى ، تكنفها من عن يمينها وشمالها بركتان عظيمتان مصقولتا الزرد بمدارس النسيم الدائم الهبوب ، قام بحفافيهما سماطان من أدواح النارنج المتفيء الظلال ، ويسمو على رأس هذه القبة وأختها الزجاجية تيجان متلعة الجيد ضخام العمائم المعتامة من أكوار نحاسية تراكب الذهب الابريز على سطوحها (2) فيكاد سنا برقه يذهب بالابصار ، قد نقص عددها من عدد أكواخ تيجان المآذن وتطأطأت عن نهضتها تأدبا مع بيوت الله ، ويساجل هاتين القبتين الضخمتين ترباهما المتقابلتان عرضا ، والمدعوة منهما بقبة النصر الآية المحكمة والمثل المضروب فى مصانع الارض جفاء ورحبا وزخرفا ونقشا وتمويها وصبغا لا تتناهى أوضاعها وأغراضها ، من محاريب وتماثيل ومقاصر وخزائن ومساجد ... (3) ومغابن ومناقس حتى لاشتفاف دخنة الشموع الدائمة الارق ، صونا لحلتها الموشية من درن أنفاسها ، واذا نازعتها لداتها من القباب السالفة فضل احتفال وجاذبتها ملاءة الطراز أبزت بسقف بهوها المعتام من منحوت العاج والابنوس وبسقفها الضخم الرازم على فضائها الافيح رزوم الغمامة الوشيحة الرداء بالاشعة الاصيلية ، فمن أصفر فى أخضر فوق مبيض ، كل ذلك بالصنائع المقربسة التي تحار فيها جفاة العماليق وحكماء يونان ، واذا نظرت الى غلائلها من الجص المرقومة بكل يد صناع وذهن مليء بالحكمة ، نظرت الى ما يحجم عنه البيان ، ويكل

---

(1) بياض

(2) فى نسخة على مطرحها

(3) بياض فى الاصل

العبارة تدقيقا وتعميقا وتخليصا وتمويها وادماجا فى زليجها المنظوم الازر بالفرش تحار الاذهان ويتعلثم اللسان ، قد تنادت فيها الصنائع المتفننة بالمبارزة وبلغ الاغياء فى لطف جواهرها الفردية لغاية لا تستبين العين صورها دقة وادماجا كأنما رقمتها الابر اللطيفة ، يعشى العيون أشعتها لا ... (1) يكاد يثبت البصر عليها صقلا ، وتبرجت منها القبة فى حلة من الوشى سابغة تستهان عندها الستور المرقومة والزرابي المبثوثة، والبرطال الماثل أمامها قيد الابصار وحلة اعتبار قد استدار قوس خرسنته العظمى متمطيا فى الهواء كأنما حدق من قوس الغمام جفوة وضخامة ، وشاشية سقفه الوسطى خباء مطنب فى السماء تحف به قلانس فارغة السمك وعناقيد جعدة التركيب تبدو من خلال خمائل مفوفة من بديع النقش ، وزخرف الـ ... ؟ وعمده المرمرية التي انعطفت عليها اهلة قسيه ، وتقبل القبة منها بثمان تبهر الناظر جفاء وطولا ، تتخلل الخضر السندسية الغلائل ، منها البيض الحسان ، والفوارة العظمى الراقصة بالمياه امامها الغرة الواضحة والشمس البادية التكوين فى الارض . وقد جرت مع هذه القبة اختها المتبرجة امامها المدعوة بقبة التيجان ذات الابهاء الرحبة الفناء فى طلق ، واستبقتا فى ميدان الجمال والكمال وضخامة الجلال استباق فرسي رهان وتتميز هذه بشعار سقف ... ؟ الذي عقدت سماواتها منه بالصنائع المقربسة ترى وجناتها بشامات زرق من سحيق اللازورد المزمل بالنضار الفائض الشعاع الى محاريب وتماثيل ومقاصير ومساجد وخزائن بادية التنميق رافلة فى حلل الاتقان وملابس الاحسان ، **وكم بين هذه القباب** المنيفة من اترابها الكواعب وضراتها البيض الترائب من كل عقيلة تكبر ان توصف ، وتجل ان تحصى محاسنها وأوضاعها ... ؟ رها كالخضراء الرافلة من فرشها وعرشها فى مطارف سندسية ... ؟ الوادي ومركب السفينة ومسرح الطرف الى رياض المسرة ... ؟ القوية الظهور بالعمد الضخمة الحظية بملاك المعراج الى أوج المصربة الشامخة الانف جليسة النجوم ، وكناس الغزالة الفلكية بالغة الصرح الطاعن ، بأسنة شرفاته ، كبد السماء الى لداتها تشييدا .. ؟ وزخرفا ونقشا ورحبا وعمدا ضخمة ، ومحاريب متقابلة ، وتماثيل متناظرة

---

(1) بيـــاض ولعـــل مكانــه : لا

ومحاسن جمة ومآرب متممة ، والرفرف الذي يجمع فلك ... ؟ عمامته المعلمة على فودها عجب يروى ، وآية من الايام تتلى ، عظيم الهيكـل ، ضخم العمل خشبي التأليف ، هريت شدة القب كهفيه ؟ جافى أسمنـة الفلمان معقود أسارير الجباه وزوايا القب بالصنائع المقربسة ، طلـق المحيا بالعبيسات المسطرة ، والسواري المصطفة ، سابغ ازر المشيعات الفضفاضة ، قد استهينت فيه معان الصبغ والتمويه ، واستهلكت النقوش المتماجنة وتلومت بقعراته المخدوشة ، وصفحاته الملس آلات الزخـرف فتفننت الصنائع وتخارق الاحكام ، تنطق أعالي طرره ، وأسافلها بلسان الاغياء والاعجاب ، وتنادي مصانع الدنيا هل من مبارز ، ويزيـد رفرف الخمسينية على رفرف هذه الدار الهائل بكونه مثنى العمل ، فهـو على ضخامته وبلوغه اقصى مبالغ الجفوة مر ... ؟ نظره سموا وشموخ أنف ، وقد التفت الادواح ، وتفيات الظلال وارتفعت الارض على أصول الاشجار. ومنابت الدوح فلا يرى أهلها الا الغصون الملد وغلائلها الخضر ، وزهرها الغض وثمارها الدانية القطاف قد افترشت مماشـي حدائقها الغلـب المنخفضة عن الدار ، وأرحى **القبو الهائل** الواصل بين عرضـي الـدار بالزليج الملمع الثوب ترقص بين الفوارات المرمرية بالمياه السلسالـة بحيث يرى المتحدر اليها دنيا تاتي من الارض قد توارت محاسنها بالغور عن لفح العيون ، ينثر ؟ سلطان الفلك من خلال الاوراق دنانير تفترش أرضهـم وترقم أثوابهم ، **ويحف بهذه الدار ديار** عديدة تختص بها اسماء وألقـاب .... (1) الدار البيضاء والدار الحمراء ، كلها سرحت بها العين رتعت منها في محاسن جمة من المياه الدافقة والفوارات الراقصة والنقر المربعة والبرك الريانة ،والسرر المرفوعة ، واذا بلغت الدار التي يفضي اليهـا من البديع من على يمين الخضراء متصاعدا مع الدرب المالك لابوابها حتى تنتهي الى اقصاها من الجانب الشرقي رايت برنامج المحاسن وانمـوذج الكمال ، بناؤها عادي يجلل الاذهان حيرة ، وتناهى التشييد بها والتوطيد الى أقصى مبالغ الفخامة والضخامة وتبز على المصانع الحافلة بغريـب الوضع الذي لم يسبق اليه ولا حام طائر فكر عليه ، نتيجة همة صيغت من نور النبوءة المتحدية بالخوارق التي ليست من طوق البشر ومألـوف

---

(1) بياض بالاصل ويبدو أن القصـد الى الدار الخضـراء

الصور . **لما نظر مولانا أمير المؤمنين** ايده الله صورها الخيالية فى ظنه الشريف وحدسه الكريم الذي يخترع الاشياء فى أحسن تقويم أحضر عرفاء المباني فاقترحها عليهم واخذ ايده الله يرى بحاسة الوصف الى أشكالها التي تصورها فلم يكونوا ليهتدوا حتى **تولى لهم رسمها ببنانه الكريم** فى قرطاس فلمسوه بأيديهم وحينئذ اهتدوا الى فهم ما لم يوته أولو الحكمة من يونان فبهتوا ثم اجتهدوا فى تشييدها وفق الاقتراح الكريم والهمة الشريفة المنيفة فانتظمت دوائرها المتراكبة بعضا على بعض فى الهواء وطبقا عن طبق ، سماطين متقابلين نظاما يوجب البهت والحيرة بحيث تسمو على قبابها المنيفة غرفها الاثيرة ، ثم لا يرى سكان علوها أهل سفلها مع جلب الضياء الفائض الشعاع للديار السفلى المحجبة عن العليا بحكمة لطيفة المدارك دقيقة المسالك . وانتسجت فوق صحون أعاليها **الشبابيك الحديدية** ، وتمتار المياه الدافقة بالبارد والسخن من الحمام المنتظم ببنيتها شرقا ذى البركة العظيمة المفروغة للوقود من تحتها من النحاس الاحمر ، تنتابها القواديس الفاغرة الافواه اليها من كل جانب فتملأ حواصلها وتسافر بها لهذه الديار ، وقد اخذت الاهبة لمصبها فى النقر المزمرية بكل دار من أنبوبين ينبجس أحدهما بالبارد والآخر بالسخن مفدين ؟ بلوالب تنجذب عند الفتل طوع يد التخيير بين الحار والفاتر او مزجهما عند الاستعمال ، فأصبحت هذه الديار مكملة الاراء متممة المآرب ، قد ختم عليها التحصين والمنعة ، وأرخى عليها الاحتجاب سدوله ، بحيث لا يخلص اليها الطيف ، حتى لقد بلغ الاحتفال بينهم فى ذلك مبالغ الاغياء الى اتخاذ **قب منحوت** على شكل الفانوس الكبير مغشى بصفيح النحاس الاصفر الصقيل ، قد مثل بجدار كل دار منه شكل معتام لمناولة ما يرد من المرافق والمآكل والمشارب على الديار يدور بوجهه عند الداعية من الاماء والخدم القائمات بخدمة سيداتها من اهل الحجاب العالي فيلقين فى جوفه من وراء الجدار . . . ؟ ثم يدور بوجهه لداخل المنزل فتقع المناولة من غير ان تتراءى الى الاشخاص او تبدو منها للعين قلامة ظفر اغياء فى الاحتجاب ومبالغة فى الغيرة التي صار بها أمير المؤمنين المثل المضروب فى عالم الارض ، **وتسمو بمنتهاها شرقا بنية** المجلس الكريم الرافل فى حلل الوشى والتنميق والزخرف ، ثم يزهو الجانب الغربي منها **بالمصرية** الشامخة الانف الغريبة الشكل المستوية على

عود المرمر الناسخ فيها لحكم الجص حتى فى الشباك البديعة التكريش والرؤوس والجباه المقربسة فاصبحت فى ذلك نسيجة وحدها ، ذات الغرف الاثيرة والشراجيب البديعة والمجالس الكريمة المربية على مصانع الدنيا ببديع النظرة الفاعلة بالنفوس والارواح فعل العقار الحيار . وبالاطلال على بستان النهر الذي تسافر منه العين الى رياض ... ة .وبساتين الملك التي تلوح خلالها القصور المنيفة كالنجوم العواتم ، ثم الى جانب الخضرة المحدقة بها على مسافة تناهز اليوم .... ؟ البرك الريانة والجداول المنسابة والحدائق الغلب ثم الى بسائط الخضرة ذات الانهار الجارية والخلجان المتدافعة والسواقي ... ؟ نابت التي انتسجت منها أيدي الانواء ، ومجاري الماء ، نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة . وتساجل هذه الديار فى التشييد والتوطيد والاحتفال والتعداد والاغياء فى مأرب الاتجاه ؟ والتحسين وجر ذيول المحاسن والتفخيم الديار المنظومة والمقامات الرافلة فى حلل الدين اللائذة بالعقيلة الكريمة من (قبة النصر) التي سحت عليها ذيول عزها وأنافتها من خلفها ، تحت خفارة السور الاعظم الطامح الغرف المحيطة بأقطار الدار . ويفوت هذا القصر الفصور الاولى من مباني الدار العظام ومصانع أولى الملك ، بالمرمر الكثير العدد ، الضخم العمد الصافي الجوهر الناصع البياض ، المعتام من المعادن النفيسة ، تتبارى التجار من أهل الحرب فى نقله وجلبه طوع اقتراع مولانا أمير المؤمنين أيده الله من قاصية بلاد البنادقة متهالكين فى تجشم الشقة البعيدة وتحمل الاعباء الثقيلة ولقيا العنت برا وبحرا فى نقل اجرامه الجافية التي يئود حملها السفن الضخمة حتى لربما غرق بعضها . وكان **بنو عبد المؤمن** خلفاء الموحدين لما اختلفوا وما أبقوا لتشييد قصورهم بمراكش ووكلوا بها همما طامحة لم ترض بالدون ولم تقتصر على النزر التافه ، قصارى ما انتهت اليه هممهم جلب المرمر لها من عمل المرية بالاندلس ، ثم جاءت دولة بني مرين فأخذوا فاس دار ملكهم وترامت همم بني عبد الحق ملوكهم الى مساجلة بني عبد المؤمن فى اختطاط القصور بها وتشييد المصانع فكانوا ينقلون المرمر لها من قصور الموحدين بمراكش ، ثم جاء الله بالدعوة الكريمة النبوية والدولة الغالبة القاهرة العاقبة الحاشرة ، فأنفت الهمم الكريمة الامامية الاحمدية المنصورية أعلى الله منارها وخلد اثارها من تخريب مدينة قواعد ممالكه الشريفة بتجديد

أخرى كما فعل بنو مرين نهبة سيوفهم العلوية الزيدانية المظفرة ، وتخطى المرية التي هي قصارى الموحدين الى تخوم **البنادقة** اغرابا بمعدنها الفضي الاديم المعقود من حصباء الفرد الملىء الذمة بما يشاء من الفنون المقترحة، فاشتملت قصوره من ذلك أيده الله ومصانعه الشريفة على ما تقاصرت عنه قدرة الخلفاء الاعاظم ، ودانت بالعجز عنه دول الاعاريب والاعاجم ، فلقد دارت فوراء الدار الكبرى من قصوره الشريفة على خمسمائة عمود مرمرية ماثلة كالجبال الرواسي ضخامة وجفاء تسمو القباب وبراطيلها على مائة منها ، ترجح الواحدة با . . . ؟ من عمد الموحدين الماثلة الاشخاص اليوم مع الشفوف فى المعدن ونضارة النحت ، ثم يتوزع الاربعمائة الجدار المحيط (بأقوار الدار (1)) ما بين المثلثات الاشكال والمفردات النابتة تحت السواري الازرية لصق الجدار ، الى اعمدة ضخمة الاجرام زمردية . . . منحوتة من معادن من عمل بمراكش ، هدى اليها رائد البحث الناشىء عن طموح الهمة ، فواصل بين البيض الحسان المواثل . . . القباب ، واما ما تضمنته الحمامات والمساجد والمجالس (والقباب (1)) والديار والمصانع فلا يعد ولا يحصى ، وقد تخارق الاحكام وتفننت الصنائع حتى استعمل المرمر فى ملاطم المساجد وقسى الابواب والمحاريب والتماثيل والمقاصير والخزائن . وقبة النصر مليئة الذمة من هذه الفنون مثرات اليد من بيضائها وصفرائها وخضرائها متفننة المساجد والمجالس والمحاريب ، والتماثيل منه رافلة من ذلك فى محاسن تكل العين عنها فاصبح البديع السعيد من هذه الاثار الفخمة نسيج وحده فى مصانع الارض . لا يشق له غباره . . . تلحق القصور الاولى شأوه ، وقد قام على رأس هذا القصر الصرح العظيم الذي لا تطاوله بنية ولا تباريه قامة ، البادي الصلف العظيم التيه على المصانع بحسن الشكل وتغالي الزين وجر ذيول الوشى وشموخ الانف متواضعا ، على عظمته ، لبيوت الله ومآذنها حاصداً بمنجله المغرب فى الحسن . . . الظلام لترعاه غزالة الصبح الكانسة فى أكتافه ، مغربا على الصروح المنيفة بالمجالس الكريمة المتراكبة فى معارجه طبقا عن طبق ، قد بلغ الاغياء فى الاحتفال فيها الى تنجيد الفوارات المرمرية اللجينية المعدة للرقص بالمياه الغزيرة التي

(1) من المخطوطة التي اعتمد عليها الاستاذ عبد الله كنون
(1) زيادة فى مخطوطة كنون

زان (بها ؟) منحر (1) الدولاب العظيم والفلك الكبير الداخل فى جملـــة
الآثار العظيمة التي وكل بها أمير المؤمنين أيده الله عزمه فى هذا التاريخ
ان شاء الله تعالى ، أسأل الله تعالى أن يمنح مقامه الكريم تماما على الذي
أحسن ويحفظ على الاسلام من منحاته الغراء امة كى تقر عينها ولا تحزن.
وحمام هذا القصر العظيم الذي تبوأ مقعد العز وشرف المنزلة الدالة على
حسن الاختيار فذلكة المحاسن وجموع الخوارق ، وبيت القصيد ويتيمة
الجيد ومنتهى الكمال وخاتمة الاختراعات ، ذو الابواب الاربعة التي يفضي
منها ، الى قصر مولانا الامام المقدس مهدي الامة رضي الله عنه مألف الايمة
الخلفاء ونشيدة بسطهم الذي يجد منه الحال فيه نشـــوة لا يستطيعهـــا
الجريال ، منقبة استأثر بها على سائر القصور وآية شاهدة على صلاح نية
بانيه رضي الله تعالى عنه ، وسقاه الرحيق المختوم فى دار نعيمه . ثـــم
الى حمى العقيلة الكريمة قبة التيجان ثم الى البديع ثم الى باب القصر حيث
مقصد الخاصة والبطانة . ناهيك من حمام خارق سياج العادة وعـــرض
الخير للتهمة ، واعيى ذرع وصفه سبك اللسان ... ؟ القلم الطلق ، ما
شئت من ضخامة البناء وتعالي الزين واختراع الوضع الذي اضحى بــــه
سيج وحده فى حمامات الارض ، يشتمل من عمد الرخام على خمسيـــن
عمودا ، دارت فوراء الدار منها على اثنى عشر جدعا جافية الاجـــرام ،
طافحة الاعناق رقراقة الاديم زمردية الالوان لجينية الرؤوس والقواعد ،
وتتوزع البيوت والمساجد والبراطيل والمحاريب بقية العدد ، وانزاحت
فوق براطيله المتقابلة ... ه ؟ المتناظرة قسى خراسنه الثمانية منعطفـة
فى الهواء انعطاف اقواس الغمام خشبية التأليف ، قد تلومت بهـــا آلات
الحسن والزخرف ، واستهينت فيها معادن الصبغ والتمويه . وانسحب
فوق قبته العادية البناء مسجده العديم النظير وبراطيله المتقابلة الاوضاع،
ذيل السقف العجيب المدعو بمنقار وميجم وكله بعمل (المندروش (1))
قيد اللواحظ والابصار حسنا وزخرفا وصبغا وتمويها ، وسقايته المغدقة
السقيا والميضاة الطويلة الاعناق الدارة المياه المثـــل المضـــروب فى
الحسن والتنميق البالغ أقصى مبالغ الاغياء أن ربضاء الاسود المرمريـــة

(2) فى المخطوطة الثانية : (التي يسمو بها ...)
(1) المندروش mondrin: يظهر انه تحريف لكلمة مندران وهي آلة يستعان بهـــا على نقـــش العـــود .

متثاوبة بالمياه المصوغة من سـ ... ؟ اللجين وسلاسل الفضة ، وقـد نسخ المرمر فيه حكم الجص ، فصيفت منه الشباك المعقـودة فـوق الاساطين والرؤوس المقربسة من تحت الخراسن ، وتخـارق الاحكـام فاستعمل فى قسى الابواب وملاطم المسجد والبيوت والمحاريب والمقاصير فادلج يجر ذيول الزهو والفخر على سائر المصانـع الشريفـة والقصور المنيفة ... ؟ الى الباجين الماثلين فى صدر البيت الاقصى من بيوتـه المعدلة للهواء ، المعتامين من نفيس المرمر لصب الانبوبين المنبجسين بالسخن ، والـ ... ؟ رأيت ما يسحر الطرف ويجب البهت حسنا وظرفا واختراعا ، ويتصل بهذا القصر الشريف قبلة بستان النهر وهـو لقـب وضعه مولانا أمير المؤمنين ايده الله فى تاريخه علما على الروض الآخذ ما بين لابتى سور القصر وسور القصبة قبلة لاف ... ؟ بالنهر الذي أخـذ ايده الله تعالى فى اجرائه الى قصوره الشريفة . واستفرغ كده فى بنائه العادي عريض المسلك مسبح المد ، كان بناؤه مفرغا من الصخر الملموم، يشق ما بين أدواح هذا الروض المفوف محفوفا بشجر النارنج والآس ، متدافع السيل غير مغمد السيف حتى ينتهي الى قرابه من القبو المعد له تحت القبة الخضراء فروضة المجاز ومركب السفين ، ومن هنالك نتهاداه البرك والقباب حتى ينصلت من الخمسينية كما قدمنا ، ويقابل باب النهر من هذه الخضراء تجاه القبلة ، وبمنتهى بستان النهر الفضاء الافيح المرتاد للقبة العظمى التي امر مولانا أمير المؤمنين ايده الله باختطاطها وتوطيـد بنائها العادي فى أزيد من ثلاثمائة شبر طولا ... لحفا (1) ؟ والجم الغفير فى الاعياد والمواسيم والوفود المتتالية على الابواب الشريفة من الممالك القاصية والارسال المتتالية من المشارق والمغارب ، ورسم ايـده الله تعالى أن يكون مسقفها من البساط المزيف خلف التمويه والزخرف البديع الخواتم ، والنقش المحدودب الظهر الحافي الاضلاع المصفد بالاخشاب الضخمة المزخرفة المعترضة بين الجدارين مثنى مثنى ، ويشرع باب الى المسرة من بهوها الضخم البناء الرحب الفناء الياجوجي السد ، المفرغ القطر العادي البرج القوي ... ؟ المعقود الظهر بحمل الانفاط القاذفـة بمارج البارود وشواظ النار ... سليل الاغياء والمبالغـة فى المنعـة

(1) كنون : ليسـع الحفـل والجـم الغفيـر .

والتحصين ينطبق على الباب المصارع البالغة أقصى مبالغ الجفوة والفخامة مفشاة بصفيح الحديد المثبت بالمسمار الضخم التكويـــر . وانتظمـــت القصور الشريفة الامامية بهذه البنية العظمى المربيـــة بضخامتهـــا على الاواوين الفخمة فى ابداع قلادة والطف سلك وأحسن ترتيب ، وذهبـت بمزيد الفخار على قصور الخلفاء وملوك الارض ببديع النظرة التي تسافر بها العين على فراسخ من باب قبة الزجاج القبلـــي بالـــدار الكبـــرى الى الباب الجوفي من الخضراء ثم الى باب النهر منها وتسمو مع بستان النهر ما بين القضب النحيفة الخصور المتمايلة القدود على ارداف المرج الثقيلة حتى تند من بابي القبة العظمى متصاعدة مع الطريق المخترقـــة الظلال من عين اليمين وعن الشمال حتى تنتهي الى البنية المنيفة الماثلة على البركة العظمى فى أعلى المسرة . وهذا الروض المدعـــو بالمســـرة المنتظم ببستان النهر .. ؟ الآخذ ما بين لابتي سور القصبة والصالحـــة عرضا ، هو ما هو من بعد الاقطار وانفساخ الخطة ، قد مد على بسيـــط الافق جناحا اخضر تكل فى جوفه جياد الرهان ، بديع الوضع حســـن الترتيب تتناظر فيه الحدائق الغلب ، من مفروس العنب والزيتون والرمان، ونخيل صنوان وغير صنوان ، ومن كل قنوان دانية وجنـــات ألفـــاف ، تتقسمها طولا وعرضا طرق شتى محفوفة بادراج الآس والنارنج وشجـــر الخابور وخمائل الورد والنسرين والياسمين ، وغـــاب زيتـــة ألمربـــى على التقدير كثرة وانبساطا على مناكب الارض عدة لامتياز البـــلاد ، واذا بلغت الى البحر الزاخر من البركة العظمى التي بأعلاه رأيت ما يبلد الفكر ويوجب البهت ضخامة وجفاء ورحبا ، يسع ممشى الضخمة الاجرام حلبة الخيل عرضا تضطرب احشاؤها اضطراب موج التيار ، وتسافر منها العين فى مجرى السفين متباعدة الاقطار تستبين للعين سيما الواقف بعدوتها ، والخسس المعقودة بالبناء لصق جدارها شرقا وغربا قيد البصر حسنا وضخامة يفور التنور منها بجدول متدافع السيل وتكتنفهـــا ادواح الآس وشجر النارنج والاترج وكل غريب من انواع الشجر الذي لا يسقط ورقه ولا تخلق الايام غلائلها السندسية . والبنية العظمى الماثلة عليها المثـــل المضروب فى حسن المنزلة وبديع النظرة يخترقها النهر المتدافـــع الى

مصبه (1) فى البحر المحيط من البركة المتموجة بين يديها ، وتتصل بها قبلة مدينة انيقة شرع مولانا أمير المؤمنين ايده الله فى تأسيسها ليختص بسكناها ممالكه الذين ازدهت الخلافة بباهر زيهم وجمال موكبهم لاتنال حسن مكانها وشريف منزلتها وبديع نظرتها والانهار الجارية من تحتها والاودية المخترقة لبسائطها والرياض المحدقة بجهاتها والـ ... المشرقة خلالها ، والقصور المنيفة أمامها بغداد ودجلتها وجلق وغوطتها وقاهرة مصر ونيلها ... »

(1) فى الاصل ماصب .

مصادر

التازي عبد الهادي : تاريخ جامع القرويين : المسجد الجامعة طبعة بيروت 1972

ابن خلدون ، عبد الرحمن : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني

ابن زيدان ، عبد الرحمن : اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس

ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك : تاريخ المن بالامامة ، تحقيق د. عبد الهادي التازي طبعة بيروت 1964

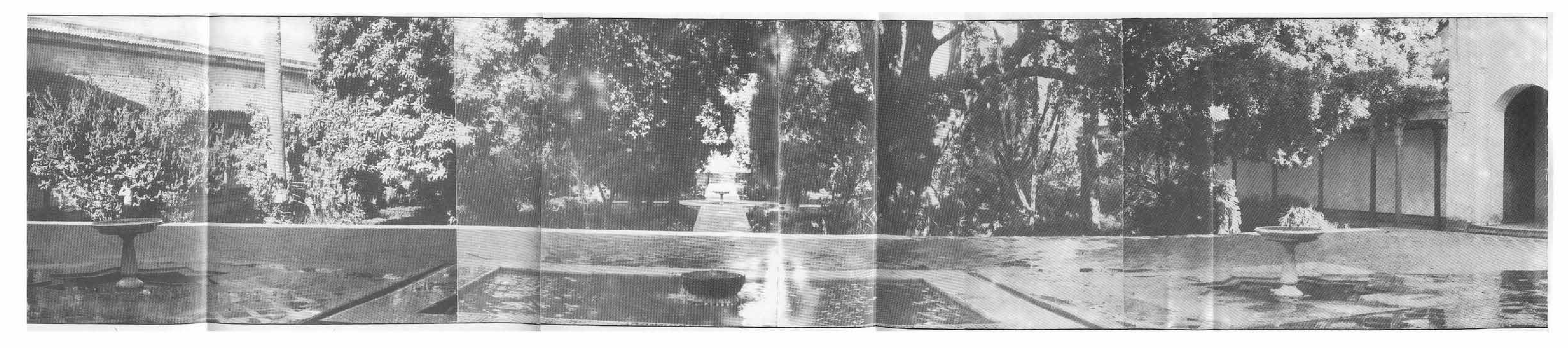
الضعيف ابن عبد السلام : تاريخ (مخطوط) بالمكتبة العامة

الفشتالي ابو القاسم : مناهل الصفا فى مئاثر موالينا الشرفا ، مخطوطتان بالخزانة الملكية ومختصر الجزء الثاني الذي نشره الاستاذ عبد الله كنون ، والجزء الذي درسه وحققه د. عبد الكريم كريم

المقري : نفح الطيب : تحقيق د. احسان عباس طبعة بيروت 1968
روضة الآس العاطرة الانفاس ، المطبعة الملكية الرباط 1383 = 1964

الناصري السلاوي : الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى نشر دار الكتاب ، البيضاء 1954

اليفرني محمد : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، المطبعة الحجرية بفاس ، والطبعة الباريزية 1888 ، تصحيح هوداس وترجمته ، مفتشية الآثار (وزارة الدولة للشؤون الثقافية) .



قصر البطحاء بفاس



مطبعة فضالة